الفصل الثانى

مصر والمذاهب الفنية

١

مصر

تمتد مصر على ضفاف النيل من مشارف أسوان إلى تخوم بحر الروم ، مطلّة عليها من الغرب الصحراء الغربية ومن الشرق الصحراء الشرقية ، وقد استطاعت أن تنهض نهضة واسعة فى العالم القديم ، بل لقد استطاعت أن تلعب أقدم دور فى تأسيس الحضارة الإنسانية ، وهو دور لا تزال أهراماته وصروح آثاره ماثلةً تحت أعيننا تعبر أروع تعبير عن مدى ما بلغته مصر من مدنية ، وقد أخذت تنشر هذه المدنية فى الأمم المجاورة متخذةً ضَمَّها إلى ممتلكاتها سبيلها إلى ذلك ، فضمّت فى أطوار مختلفة الشام وأجزاء من بابل وآشور ، وتمضى أحقاب متطاولة ولمصر المكانةُ الأولى بين الأمم القديمة ثم يدور الزمن دورةً ، فيغزوها الرعاة الهكسوس ، ولكن سرعان ما تعود إلى نفسها فتطردهم منها ، وتخرج مرة أخرى إلى آسيا فتستولى على بعض أجزائها ، ولكن الزمن يدور دورة بل دورات فإذا مصر يغير عليها الحيثيون ثم الأشوريون ثم الفرس ، وتستمر تابعة لهم منذ عام ٥٢٥ ق.م ، حتى يخرجهم منها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣ ق.م ، وبذلك تنتقل إلى حكم الإغريق ويختطُّ بها الإسكندر مدينة الإسكندرية ، كما يختطُّ بها بطليموس أحد قواد الإسكندر دولة كبيرة استطاعت أن تنهض بها نهضة واسعة ، وهى دولة البطالسة التى أقامت فى الإسكندرية داراً كبيرة للكتب ، كما أقامت داراً أخرى سمّتها دار المتحف ، وكانت جامعة كبيرة أضاءت منها أنوارُ الثقافة اليونانية وخاصة بعد أن استولى الرومان على أثينا ، فإن كثيراً من أساتذتها فرّوا ومعهم ما تبقى من مصابيح تلك الثقافة إلى

الإسكندرية ، وقد رجعت هذه المصابيح تضيء متوهجة بمصر طوال عصر البطالسة ، وبعد البطالسة ، فإن جامعة الإسكندرية ظلت قائمة فى عهد الرومان الذين استولوا على مصر منذ عام ٣١ م ، ونحن نعرف أن روما لم تحاول أن تبعث فى مصر نهضة ثقافية إذ كانت تتخذها مخازن لما يلزمها من قمح ، وكم أثارتْ فيها من حروب وسفكت من دماء وأزهقت من أرواح !

وتدور عجلة الزمن دورة فإذا عمرو بن العاص يأتى على جيش عربى كبير عام ٦٤٠ م متخذاً طريقه تلك الدروب والمسالك التى كانت تشق طور سيناء إلى مصر ، ويتعقب الرومَ فى غير موقع ، ويستطيع — بما أوتى من قوة — أن يطردهم منها ، وبذلك تدخل مصر فى عصر جديد هو عصر الإسلام والعروبة ؛ وهو عصر امتاز منذ أوائله بالعدل وأن يكون الناس سواسية أمام حاكمهم فلا يُضْطهد أحدٌ فى نفسه ولا فى ماله ولا فى دينه ، وقد أخذ المصريون يدخلون فى دين الله أفواجاً ، وهاجر إليهم كثير من قبائل العرب ونزلوا ريف مصر ، فكان ذلك عاملا من عوامل الاندماج بين المصريين والعرب . على أنه ينبغى أن لا يُفْهَمَ من ذلك أن المصريين تقبَّلوا الحكم العربى وخضعوا له خضوعاً ، بل كانوا كثيراً ما يثورون[1] ، وخاصة من أجل الضرائب التى كانوا يؤدونها ، ولولا أن موجة الإسلام كانت حادة ما استطاع العرب أن يستمروا بمصر ، فإن المصريين نزعوا عن دينهم أو قل نزعت كثرتهم عن دينها إلى الدين الجديد ، وحتى من بقى منهم على دينه أخذ يهجر لغته القبطية وما كان يعرف من اليونانية إلى اللغة العربية بحيث لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أسقف أشمون يشكو من انعدام اللسانين القبطى واليونانى فى قبط مصر[2] ، وما من ريب فى أن ذلك يؤكد اندفاع مصر اندفاعاً شديداً نحو التعرب واتخاذ العربية لساناً لها ، فقد نزعت عنها ثيابها اللغوية القديمة واتخذت مكانها ثياباً عربية جديدة .

---

(١) Stanley, Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 28, 32

(٢) انظر كتاب سير البطاركة لساويرس (طبع بيروت) ص٦ وهو مؤلف بعد عام ٤٠٠هـ بقليل .

٢

شخصية مصر

من يبحث مصر فى مختلف عصورها يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل ، بل دائماً تظل كما هى فى كل حكم وفى كل عصر . وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب طبيعية جعلته يعيش معيشة مستقلة فى عاداته وتقاليده ، ونقصد بتلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنهما عزلتاه عن الاختلاط والانسياح فى الأمم الأخرى ، وحقاً قد تمرّ بهذا المعبد العظيم عاصفة هوجاء فتُفْتَحُ أبوابه ويدخل جيش فاتح على رأسه قائد مظفر ، ولكن سرعان ما يذوب هذا الجيش ويَفْنَى فى أبناء المعبد وطقوسهم وعاداتهم . وفى هذا المعبد يجرى نهر النيل نافثاً لُعابه من حوض إلى حوض فى أوان « يَدِرّ حِلابه ، ويكثر فيه ذبابه » ، وحول هذا النهر يعيش المصريون من عصر الفراعين إلى العصر الحديث « يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحبّ ، يرجون بذلك النماء من الربّ » ، وقد ظلوا يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وجيلا بعد جيل يعملون على وتيرة واحدة ، ينقلون الماء من هنا إلى هناك بهذه الأوانى من الطّوابير وما يتصل بها ، يبعثون الحياة فى وديان مصر وأحواضها « فبينما مصر لؤلؤةٌ بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضرة ، فإذا هى ديباجة رَقْشاء » . وهكذا مصر دائماً : كتاب أحكمت سطوره ونقوشه منذ أقدم الأزمنة ، وما تزال هذه السطور والنقوش واضحة غير مطموسة ، فالناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون فى وديان النيل فى تلك المياة المُشْبعة بالطَّمْى ، يديرون آلات لا تكاد تختلف فى شىء عن آلات أجدادهم ، وإنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضاً كثيراً عن طرق أسلافهم . ومن ثَمّ كانت مصر بلداً محافظاً يحتفظ بشخصيته ومقوماتها على مر العصور ، وقد كان لذلك أثر جليل

فى تاريخ مصر ، فإنها استطاعت أن تحتمل الفتوح المختلفة ، وأن تصمَد لها دون أن يُطْمَس شىء مهم من معالمها لما لديها من امتناع عن التحول وقدرة على الإساغة والهضم ، فإذا هى تهضم ما يدخل إليها من عناصر أجنبية ، هضمت قديماً الرعاة الهكسوس وما دخلها من عناصر الأشوريين والحيثيين والفرس واليونان والرومان ، بل لقد هضمت عناصر العرب أنفسهم مع اتساع تأثيرهم فيها من الوجهتين الدينية واللغوية .

وهذه المحافظة فى مصر وما يطوى فيها من مقدرة على الاستمرار ليس معناها أن مصر تستعصى على العناصر الثقافية عند الأمم الأجنبية ، فكثيراً ما تقبّلت قديماً وحديثاً هذه العناصر وحاولت أن تهضمها وتُعيدها فى صورة جديدة تلائمها ، ولعل أوضح ما يفسر ذلك ما كان من استقبالها فى الإسكندرية للثقافة اليونانية ، فقد استطاعت أن تستوعبها ، وأن تنفذ من ذلك الاستيعاب إلى مذهب جديد فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وهو مذهب يعتمد على العناصر اليونانية من جهة والعناصر المصرية وما يتصل بها من معتقدات من جهة أخرى . و لم تحاول مصرُ الاتصال بثقافة اليونان الذين فتحوها فقط ، بل نراها تحاول الاتصال بثقافات أخرى لم يكن لأهلها نفوذ سياسى بها ، ولعل خير مثال لذلك اتصالها بالثقافة السريانية فى أثناء الحكم الرومانى ، وخاصة فيما يتصل بدراسة الطب ، يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب ، وإنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرَسُ فى الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غَزْو الفرس لها »[1] ومن هذه اللغة تُرْجم لعمر بن عبد العزيز كتاب أهرون القسّ فى الطب[2] ، ولم تنس مصر لغتها القبطية ، فقد كانت تتخذها فى طقوسها الدينية كما كتبت

---

(١) فتح العرب لمصر (الترجمة العربية) (طبع لجنة التأليف) ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ .

بها بعض كتابات تاريخية[١] . على أنه ينبغى أن نعرف أن جامعة الإسكندرية اليونانية هجرها أساتذتها إلى مدرسة أنطاكية فى عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذلك لا نسمع بعد عصره عن خليفة أو أمير يطلب علماء الإسكندرية على نحو ما طلب خالد بن يزيد بن معاوية جماعة منهم لترجمة ما عندهم من كتب فى الكيمياء[٢] . ومع ذلك فإغلاق هذه الجامعة إنما اقتصر تأثيره على الجانب الإغريقى ، أما الجانب السريانى وما يتصل به من الطب فقد استمر فى مصر ، إذ كان العلماء السريان منبثين فى الأديرة ، فكان يقصد الطلاب إليهم ، وكان الطب يُتوارثُ فيهم ، ولذلك ظلت مصر تشتهر بأطبائها حتى عصر متأخر ، وممن اشتهروا فيه سعيد بن توفيل النصرانى طبيب ابن طولون[٣] ، وسعيد بن البطريق : « وكان طبيباً نصرانيًّا من أطباء فسطاط مصر . . وقد عُيِّن بطريركاً على الإسكندرية سنة ٣٢٨هـ ، وله كتب فى الطب والجدل »[٤] .

ومهما يكن فقد استمرت بمصر بقايا من التراث اليونانى ، حتى بعد إغلاق جامعة الإسكندرية ، إذ ظلت بها رواسب من علم إقليدس فى الفلك ومن علم الكيمياء ومن الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من غنوسطية ودراسات لاهوتية ، وما من ريب فى أن الحركة الصوفية التى ظهرت بمصر فى القرن الثالث وعلى رأسها ذو النون المصرى الإخميمى كانت تتأثر تأثراً مباشراً بما بقى من هذه الجامعة ، وخاصة إذا عرفنا أن أول انبعاث لهذه الحركة كان فى الإسكندرية عام ٢٠٠ هـ[٥] ، وأيضاً فهم يقولون إن ذا النون المصرى كان عالماً فى الكيمياء ، وقد ردوا كثيراً من آرائه إلى مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكما تأثر التصوف بالأفلاطونية والغنوسطية الإسكندرية تأثر كذلك التشيعُ بهما فى العصر الفاطمى ولعله من أجل ذلك كان الفاطميون يدعون إلى التثقف بالثقافة الفلسفية ،

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٨٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) ص٣٣٧ ، ٥٠٧ .

(٣) النجوم الزاهرة طبع دار الكتب ٣/١٧ .

(٤) طبقات الأطباء ٢/٨٦ .

(٥) الولاة والقضاة للكندى ص١٦٠ وانظر أيضاً ص ٤٤٠ .

إذ كانت هذه الثقافة فعلا مؤثرة آثاراً عميقة فى عقيدتهم الشيعية .

وقد سارعت مصر بعد إسلامها إلى العناية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ، كما سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية من نحو وعروض ولغة وأدب ، فكان منها اللغويون والنحويون ، كما كان منها الفقهاء والمحدِّثون والقراء ، وأيضاً كان منها المؤرخون الذين أرخوا لفتوحها . وكان جامع عمرو بن العاص هو الجامعة الكبرى التى تدرس فيها العلوم الإسلامية ، وهى دراسة كانت تنساق نحو تقليد بغداد فى علمها وما وصلت إليه فى الدراسات المختلفة ، ومصر من هذه الوجهة تشبه الأندلس تمام الشبه ، فكما أن الأندلس قلدت المشرق فى علومه الدينية واللغوية ، أو قل بعبارة أدق إنها نقلت هذه العلوم منه ، كذلك مصر فإنها اعتمدت على النقل أكثر مما اعتمدت على الابتكار ، ولم يكن هذا شأنها فقط فى العلوم الدينية واللغوية ، بل كان شأنها أيضاً فى حركتها الأدبية ، فإنها كانت تصوغ نماذجها على مثال النماذج البغدادية ، إذ كان الأدباء يعجبون فى مختلف الأقاليم العربية بهذه النماذج ، وهو إعجاب طبَّع أدبهم من شعر ونثر بطابع أصيل من التقليد ، وسنرى هذا الطابع يستمر فى جميع ما أنتجت مصر من نثر فى أثناء عصورها الوسيطة ، ومن ثمّ لم تستطع أن ترفد مجرى النثر العربى العام بجدول جديد تتميز مياهه من مياه المجرى العام ، فليس هناك مذهب جديد ، وإنما الذى هناك دائماً هو التقليد والمحاكاة على نحو ما رأينا فى الأندلس ، وكان ذلك سمة الأقاليم جميعًا ، فهى تقرأ نماذج المشرق التى صُنعت داخل مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، ثم تحاول أن تصوغ نماذج مشابهة لتلك التى تقرؤها ، ذاهبة أحيانًا مذهب أهل الصنعة ، وأحيانًا أخرى مذهب أهل التصنيع أو التصنع فى غير نسق ولا نظام مطرد ، وإن الإنسان ليعجب إذ يرى هذه المذاهب التى صنعها المشرق تكتسح أمامها جميع الحدود القومية فى الأقاليم العربية دون أن يعترضها حاجز أو يقف أمامها عائق ، ومن العبث حقًّا أن نبحث عن مذهب جديد يُحدثه أى إقليم ، وكأنما ضاقت أبواب التجديد أمام الأدباء فهم

يُوَلُّون وجوههم دائماً شطر بغداد يتعبدون أمثلها ويحتذون على ما أخرجته من نماذج فى الشعر والنثر .

٣

النثر المصرى

إذا أخذنا نبحث عن وثائق الكتابة الأدبية فى مصر فى أثناء الفترة الأولى ، ونقصد فترة الولاة من عمرو بن العاص إلى أحمد بن طولون لم نكد نتبين شيئاً واضحاً ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى مصر كتابة ولا كتّاب ، فالمقريزى يقول : « لما كانت مصر إمارة كان بها ديوان البريد . ويقال لمتولّيه صاحب البريد . . وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كُتّاب يُنشئون عنهم الكتب والرسائل »[١] ، وبجانب ديوان البريد الذى يشير إليه المقريزى كان بمصر ديوان للخراج ، وكانوا يكتبون فيه أولا باليونانية ثم كتبوا فيه منذ عهد عبد الملك أو ابنه الوليد بالعربية ، ومن يستعرض ما جاء فى كتاب الوزراء والكُتّاب للجهشيارى عن دواوين مصر وكُتّابها فى العصر الأموى وأوائل العصر العباسى يلاحظ أن الكتاب الرسميين الذين يتصلون بديوان البريد وديوان الخراج كانوا غالباً من غير المصريين ، فهو يروى أن عبد العزيز بن مروان والى مصر كان يكتب له يناسُ بن خُمايا من أهل الرُّها [٢] ، كما يروى أن سليمان بن عبد الملك ولّى رجلا من موالى معاوية الخراج بمصر[٣] . هذا فى العصر الأموى ، أما فى العصر العباسى فيروى الجهشيارى أن هرون الرشيد ولى على مصر عمر بن مهران كاتب الخيزران ، فأخذ معه رجلا استكتبه على الديوان[٤] ، وكذلك يروى أن الخصيب استكتب جابر بن داود جَدّ البلاذرى،

---

(١) خطط المقريزى طبع بولاق ٢/٢٢٦ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٥١ .
(٤) الوزراء والكتاب ص ٢١٧ .

المؤرخ المشهور[١] ، وهو فارسى الأصل ، ولما ولى عبد الله بن طاهر مصر فى عصر المأمون اصطحب معه إسحق بن أبى ربعى ليكون كاتبه ، وفيه يقول بعض الشعراء[٢] :

أرَى كاتباً جاهُ الكتابة بَيِّنٌ عليه وتأديب العراق مُنيرُ
له حركاتٌ قد تشاهد أنهُ عليمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

وقد سُقنا ذلك لندل على أن مصر لم تستفد كثيراً فى عهد الولاة من حيث النشاط الأدبى فى باب الكتابة الرسمية ، إذ كانت تستورد كتَّاب دواوينها من الخارج ، ومن أجل ذلك لم يكن لها نشاط واضح فى هذا الجانب إلا ما رواه المقريزى من أنه كان لبعض أمرائها كُتَّاب ينشئون عنهم بعض الرسائل ، ومن هؤلاء الكُتَّاب عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد[٣] ، ولعل مما يتصل بذلك ما يقال من أنه كان لعبد الحميد الكاتب عقبٌ يسكنون مصر منذ قُتل فى موقعة الزَّاب وكانوا يكتبون لأمرائها[٤] . على أنه ليس عندنا نصوص لهذه الطائفة من كتاب الأمراء ، ولا للطائفة الأخرى من كتاب الولاة ، ومن ثمَّ كنا لا نُبعد إذا قلنا إن مصر لم تستولها صورة واضحة من الكتابة الفنية فى عصر الولاة غير أننا لانصل إلى عصر ابن طولون الذى استقل بها ، وأسَّس فيها دولة كان لها شأن مهم فى القرن الثالث للهجرة حتى نجد مصر تبدأ عصراً جديداً فى تاريخ النثر الأدبى ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن ابن طولون اتخذ لنفسه ديوان رسائل ، وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة أدبية تماثل ما نشأ فى دمشق وبغداد حول دواوين الرسائل ، يقول صاحب صُبْح الأعشى : « لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى مدة نواب الخلفاء صرْفُ عناية تقاصُراً عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابةُ مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٥٦ والفهرست ص ١٦٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٩٣ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٥٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كُتب منها ما تتوافر الدواعى على نقله ، وتنصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالى الليالى . . ولما أخذ أحمد بن طولون فى تدبير الملك وإقامة السلطنة بالديار المصرية ، وشمخ بها سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عَبْدكان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره »[١] ، ولم يكتف ابن طولون بابن عَبْدكان ، فقد جاء بجماعة من كتاب العراق تعاونه مثل أبى عَبْد الله الواسطى[٢] ويعقوب بن إسحق[٣] وأحمد بن أيمن ، وكان يكتب فى حداثته للعباس بن خالد البرمكى[٤] وضمّ إلى هؤلاء الكتاب آخرين من كتّاب مصر وعلى رأسهم الحسن بن محمد بن أبى المهاجر وإخوته على وأبو القاسم وأبو عيسى ، وكلهم من عقب عبد الحميد الكاتب[٥] . وبذلك كله نهض ابن طولون بديوان الرسائل فى مصر نهضة عظيمة ، وهى نهضة جعلت بعض كتاب العراق يهاجر إلى مصر طلباً للتوظف فى هذا الديوان على نحو ما يحدثنا ياقوت عن إسحق بن نصير[٦] الكاتب البغدادى ، فقد قدم على ابن عبدكان رئيس الديوان والتمس منه التصرف ولم يزل معه إلى أن توفى ، فاستخلفه مكانه خمارويه وأجرى عليه أربعمائة دينار فى الشهر ثم رفعها إلى ألف دينار[٧] . ويذهب عصر الطولونيين وتدخل مصر مرة أخرى فى عصر الولاة فيضعف بها ديوان الإنشاء ويستمر على ضعفه فى عصر الإخشيديين ، إذ لا نجد لمصر — على عهدهم — كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى ابن عبدكان الذى كان يباهى به ابن طولون كُتّاب بغداد

---

(١) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨.

(٢) المكافأة لأحمد بن يوسف طبعة (وزارة التربية والتعليم) ص ٢٠ .

(٣) المكافأة ص ٥٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٩١ ، ١٦٧ .

(٥) الوزراء والكتاب ص ٨٢ .

(٦) هكذا فى ياقوت ، وفى صبح الأعشى وحسن المحاضرة والنجوم الزاهرة : نصر .

(٧) انظر معجم الأدباء ٦/٨٥ .

والعراق ، ونحن نقف عند هذا الكاتب وقفة قصيرة لنطلع على ما كانت تخرجه مصر فى عهده من نماذج الكتابة الفنية .

ابن عبدكان

هو أحمد بن محمد بن مودود [١] ، وقد نال شهرة واسعة فى عصره وبعد عصره ، ولكن كُتّاب التراجم لم يهتموا به ، وأغلب الظن أن ابن طولون اصطحبه معه من بغداد ، فاسمه يدل على أنه فارسى ، إذ الألف والنون تأتى فى الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتى الكاف للتصغير ، وإذاً فعَبْدكان تقابل فى العربية عُبَيْدِىّ ، وقد أحضره ابن طولون إلى مصر وبقى بها حتى وفاته ، ويظهر أنه توفى بعد سيده ، إذ تتفق المصادر القديمة على أن إسحق بن نصير تولى ديوان الرسائل من بعده لخمارويه بن أحمد بن طولون[٢] . وعُرف ابن عَبْد كان بجودة أدبه وفنه ، قال صاحب الفهرست : « كان بليغاً مترسلا فصيحاً ، وله ديوان رسائل كبير »[٣] ، ويقول ياقوت : « كان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة »[٤] ، وقد أشاد به صاحب صبح الأعشى فى غير موضع من كتابه ، ومما قال فيه : إن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان ، ويقولون : « بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما »[٥] ، ومر بنا فى غير هذا الموضع أن الصاحب بن عباد سأل رجلا من أهل الشام : رسائل مَن تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبدكان ، قالى : ومن ؟ قال : رسائل الصابى ، وفى اقتران ابن عبدكان ، وهو من كتاب القرن الثالث ، بالصابى وهو من كتّاب القرن الرابع قرن

---

(١) صبح الأعشى ١/٩٥ .
(٢) صبح الأعشى ١/٩٥ والنجوم الزاهرة ٧/٣٣٦ وحسن المحاضرة للسيوطى (طبع مطبعة الموسوعات) ٢/١٤٦ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ .
(٤) معجم الأدباء ٦/٨٥ .
(٥) صبح الأعشى ٣/١٧ .

التصنيع ما يجعلنا نقف — من بعض الوجوه — على مبلغ مكانته الأدبية . على أن للمسألة وجهاً آخر ، وهو أن الناس فى النصف الثانى من القرن الرابع كانوا يعتدُّون بابن عبدكان ورسائله مع أننا نعرف أنهم لم يكونوا يأبهون لغير السجع والبديع فى تلك العصور ، وفى ذلك ما يجعلنا نحس شيئاً من الصلة بين آثار ابن عبدكان وآثار أصحاب التصنيع من أمثال الصابى ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج فإن من يرجع إلى رسالته التى كتبها عن ابن طولون إلى ابنه العباس ، وكان قد شغَب عليه بالإسكندرية أثناء رحلة له بالشام ، وهى الرسالة التى احتفظت له بها المصادرالقديمة يجده فيها يُعْنى بالسجع عناية شديدة ، وحقًّا قد يتخفف منه ولكنه يلتزمه فى أكثر جوانب الرسالة مما يجعلنا نؤمن بأنه كان يعتمد عليه اعتماداً دقيقاً فى صنع رسائله ، وانظرْ إليه كيف يسهّل تلك الرسالة[1] :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسْبه ، العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المرْكوس فى فتنته ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ، سلامٌ على كل مُنيب ومستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكَظْم ، وحلول الفوت والندم . . . أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تُثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها ، وستعلم هَبِلتك الهوابل — أيها الأحمق الجاهل ، الذى ثَنَى على الغَىِّ عِطْفه ، واغترّ بضجاج المواكب خلفه — أى مورد هلكة بإذن الله تورّدت إذ على الله عز وجلّ تمردّت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا (قرية كانت آمنةمُطْمئنة يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان ، فكفرت بأنْعُمِ الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنابتك ، وتأميلا لفَيْئتك ، فلما طال فى الغىّ انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعظة تُلين

---

(١) صبح الأعشى ٥/٧ .

كبدك ، ولا التذكير يُقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلاً . . . واعلم أن البلاء — بإذن الله — قد أظلك ، والمكروه — إن شاء الله — قد أحاط بك ، والعساكر — بحمد الله — قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب ووَيْل ، فإنا نُقسم ، ونرجو أن لا نجور ونظلم ، أن لا تَنْثَنى عنك عِنانا ، ولانؤثر على شأنك شأناً ، فلا تتوقّل ذروة جبل ولا تَلج بطن واد إلا تبعناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أممت منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمرّ من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحَوْل الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرّخاء ما جهلت ، وتودّ أنك هُبلت ، ولم تكن بالمعصية عَجلت ، ولا رأىَ من أضلّك من غُواتك قبلت ، فحينئذ يتفرىّ لك الليل عن صبحه ، ويُسْفر لك الحق عن مَحْضه ، فتنظر بعينين لاغشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكاً بحبائل غرور ، متمادياً فى مقابح أمور . من عُقوق لا ينام طالبه ، وبَغْى لا ينجوهاربه ، وغدْر لا ينتعش صَريعه ، وكفران لا يُودّى قتيله . وتقف على سوء رويّتك ، وعظم جريرتك ، فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإن السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح ، وتتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعاً ، وانقدت إليه منتصحاً » .

وأنت ترى ابن عبدكان فى هذه القطعة يعنى بموازنة عباراته موازنة تخرج به إلى السجع فإن تركه فإلى الازدواج . وهذا يدل على أنه كانت تتأصّل عنده رغبة فى إحكام عباراته وتنسيقها تنسيقاً بديعاً ، وهو تنسيق كان يعتمد دائماً على الملاءمات الصوتية . وكأنما كان أساس الكتابة الفنية فى رأى ابن عبدكان هو الموسيقى وإحسانها ، وقد طبعتْ هذه الموسيقى أسلوبه بطابع خاص من الترادف حتى يلاحم بين أصواته من جهة ، وحتى يحدث ما يريد من سجع وازدواج من جهة أخرى . وليس ذلك كل ما يميز صناعة ابن عبد كان ، فهناك

جانب تظهر بعض شياته فى تلك القطعة ، وهو جانب التصوير . والحق أن ابن عبدكان من أهم الكتّاب الذين ظهروا فى القرن الثالث لا فى مصر وحدها ، بل أيضاً فى بغداد نفسها ، وهو حقّاً ليس مصريّاً وإنها هو بغدادى ، ولكن مصر هى التى ظفرت به ، وقد استطاع أن يحقق لها كثيراً من أحلامها فى منافستها لبغداد على عهد ابن طولون . وليس كل ما يذكر لابن عبدكان فى هذا الباب هو صورة كتابته وما بها من فن وجمال ، بل إن هناك وجهاً آخر لعمله ، وهو أنه وضع للكتاب فى مصر رسوم الكتب وبماذا تنتهى وكيف تُعَنْوَن[1] . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن ظهوره بمصر كان طفرة ، وربما كان اعتباره تتميما لحلقة بغدادية أدق من اعتباره ابتداء لحلقة مصرية ، فإن مصر تراجعت بعده فلم تستطع أن تخرج كاتباً ممتازاً فى عصر الولاة بعد الطولونيين ولا فى عصر الإخشيديين ، وكأنها أبقت الكاتب الممتاز لعصر الفاطميين .

٤

الفاطميون ونهضة النثر المصرى

ما نكاد نشرف على النصف الثانى من القرن الرابع حتى تبدأ مصر صفحة جديدة ، وهى صفحة زاهية من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والفنية ، فقد دخلها الفاطميون فاتحين عام ٣٥٤ هـ وأسسوا فيها إمبراطورية عظيمة دانت لها شعوب أفريقيا الشمالية وبلاد الشام والعرب وخُطب باسمهم فى العراق وبغداد نفسها [2] وحتى بلوخستان كانت تخضع لهم ، فابن حوقل يقول : إن أهلها كانوا يرسلون للخليفة الفاطمى بأموال وذخائر كثيرة [3] ، ويقول ناصر خسرو الذى زار مصر عام ٤٣٩ للهجرة : إنه رأى بالقاهرة طائفة من أبناء الملوك والأمراء

---

(١) انظر صبح الأعشى ٨/١٦٠ وما بعدها .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٥/٤ وما بعدها .

(٣) المسالك والممالك لابن حوقل (طبعة ليدن) ص ٢٢٢ .

الذين جاءوا من أطراف العالم مثل أبناء ملوك جورجيا وملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان[١] ، وأكبر الظن أن هؤلاء الأبناء كانوا بعوثاً لبلادهم تريد أن تنهل من منابع الثقافة الشيعية بمصر . وكل ذلك يؤكد عظم المكانة التى احتلتها مصر فى العصر الفاطمى ، وهى مكانة أهّل لها نظام الدعاة الذى أقاموه، فقد كان لهم دعاة منبثُّون فى كل صقع وفى كل ناحية يدعون لهم، يقول المعز فى كتاب أرسله إلى أحد قواد القرامطة : « ما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حُجَجٌ ودعاة يدعون إلينا : يدلُّون علينا ، ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، ويَنشرون علمنا ، ويُنذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن »[٢].

استطاع الفاطميون أن يرتفعوا بالقاهرة فى عصرهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة بغداد فى أيام مجدها الأولى ، فقد بنوا فيها القصور الفخمة والمساجد الضخمة وزركشوا هذه القصور والمساجد بضروب مختلفة من الزخرف لا نبعد إذا قلنا إنها كانت منتزعة من حياتهم التى كانت تقوم على التأنق وهو تأنق ساعد عليه ثراء مصر الذى يبالغ المؤرخون فى وصفه ، ولعل مما يدل عليه من بعض الوجوه ما يقوله ابن ميسر من أن خراج دمياط وتنيس والأشمونين كان يزيد على مائتى ألف دينار فى العام[٣] ، ويقول ناصر خسرو : إنه رأى بالقاهرة رباطاً يحصل منه كل شهر ألف دينار ، وأن بالقاهرة مائتى رباط أكبر منه أو مثله[٤] . ويظهر أن هذا الثراء كان يعم الشعب وخلفاءه ووزراءه ، يقول ناصر خسرو : « رأيت فى مدينة مصر نصرانياً من سراتها قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تُعَدّ ،وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصاً وكانت الغلة عزيزة ، فأرسل الوزير إلى هذا النصرانى ، وقال ، ليست السنة رخاء ،

---

(١) سفرنامه لناصر خسرو (الطبعة العربية) طبع لجنة التأليف ص ٥٣ .

(٢) الاتعاظ للمقريزى (طبعة بونتز) ص ١٣٩ .

(٣) أخبار مصر لابن ميسر (طبع أوربا) ص ٤٦ .

(٤) سفر نامه ص ٦٣ .

والسلطان مشفق على الرعية ، فأعطِ ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضاً ، قال النصرانى : أسعد الله السلطان الوزير ، إن لدىّ من الغلة ما يمكننى من إطعام أهل مصر الخبزست سنوات. . وكل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرىّ لتبلغ غلّته هذا المقدار ، وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر»[1].

ويتكلم ناصر خسرو عن قصر الخليفة فيقول : إن قصره به نحو ثلاثين ألفاً من الخدم والجوارى ، وإنه رأى يوم فتح الخليج — وكان أحد الأعياد فى العصر الفاطمى — سراداقاً نُصب للسلطان على رأس الخليج ، وكان هذا السرداق من الديباج الرومى ، موشى كله بالذهب ، ومكلل بالجوهر ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس ، وأمام هذا السرداق خيمة من أبى قلمون ، وسرداق آخر كبير ، ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبه وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى وأبى قلمون ، وكذلك كانت تسير إبل كثيرة عليها هوادج مزينة وبغال تحمارياتها (هوادجها) مرصعة بالذهب والجوهر وموشاة باللؤلؤ[2]. ويستطرد ناصر خسرو إلى وصف مائدة رآها للمستنصر يوم العيد فيقول : إنه رأى فى هذه المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً[3] . ومن يرجع إلى ما رُوى عن ثورة الأتراك فى عصر المستنصر أثناء المجاعة العامة بمصر يرى مبلغ ما كان فى دور الفاطميين من بذخ وترف يقصر عنهما الوصف ، فقد هجم الأتراك فى ثورتهم على قصر المستنصر ونهبوا ما فيه من مجاميع التحف والطُّرَف وباعوه بأبخس الأثمان ، فمن ذلك سبحة من الأحجار الكريمة قُوِّمت بثمانين ألف دينار وصندوق من الجوهر قوم بثلاثمائة ألف دينار ، وأربع عشرة كيلة من

---

(١) سفر نامه ص ٦٢ .

(٢) سفر نامه ص ٥٢ .

(٣) سفر نامه ص ٦٤ .

الجواهر ، وكثير من أوانى الذهب والفضة ، وأربعمائة صندوق من القطع الذهبية ، وحصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا وشطرنج رقعته من الحرير ، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلّى بالأحجار الكريمة ، وطاووس من الذهب رُصِّع بالجواهر وكانت عيناه ياقوتتين وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصّع باللؤلؤ ، ومنضدة قوائمها من العقيق . . . ومضرب للخليفة الظاهر كان منسوجاً بالذهب ، ومضرب آخر للوزير اليازورى كلّفه ثلاثين ألف دينار ، إذ اشتغل فى صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات ، وما لا يحصى من الطيب والعطور والثياب[1] وبجانب ذلك نجد المقريزى يقول : إن بنتاً للمعز تركتْ بعد موتها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف[2] ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إن ابنة للحاكم تركت نيفاً وثمانين زيراً صينيًّا مملوءة مسكاً ، ووُجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل ، وكان إقطاعها فى السنة خمسين ألف دينار[3] . وإذا تركنا قصر الخلفاء إلى الوزراء وجدنا ابن منجب يقول : إن إقطاع يعقوب ابن كلس أول وزرائهم كان مائة ألف دينار فى العام ، وقد خلف بعد موته من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن البز (الثياب والسلاح) ما قيمته خمسمائة ألف دينار[4] ، وقد ترك الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتله الخليفة الآمر ستمائة ألف ألف دينار عيناً ومائتين وخمسين إردبًّا دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس[5] . وهذه كلها صور تشبه أن تكون أقاصيص ، ولذلك اتهمها بعض الباحثين ، ولكن اتهامه لا دليل عليه ، فقد أجمع المؤرخون على صدقها وتوثيقها .

ونحن إنما سقنا هذا الوصف الطويل لثراء الفاطميين لننفذ منه إلى أنهم أوتوا مادة كفيلة بإحداث نهضة واسعة فى مصر سواء فى عقلها أو فى أدبها وفنها .

---

(١) خطط المقريزى ١/٤١٥ وما بعدها .
(٢) الخطط ١/٤١٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٩٢ .
(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب ص ٢٣ .
(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٢٢ .

أما من حيث العقل وما يتصل به من الحركات العلمية ، فإن مصر شهدت فى العصر الفاطمى نهضة علمية واسعة ، إذ شجع الفاطميون على الدراسة والثقافة ، وأكبر الدلالة على ذلك أنهم عملوا على تأسيس أكبر جامعة فى الشرق ، وهى جامعة الأزهر ، ذلك المسجد الذى بناه جوهر الصقلى ، وسماه بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء ، ويرجع الفضل فى تحويل هذا المسجد إلى دار كبيرة للدرس والتثقيف إلى وزير الفاطميين الأول يعقوب بن كلس ، فهو الذى حوله إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والمدنية[١] ، وكان بيته يعتبر نادياً (صالوناً) كبيراً فى عصره ، فقد « رتب لنفسه مجلساً فى كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ويحضره القضاء والفقهاء والقراء والنحاة . . وأصحاب الحديث ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح ، وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطبّ »[٢] ، وتبع الوزراء يعقوب بن كلس يعنون بتشجيع الحركة العلمية . وبنى الحاكم داراً عظيمة للكتب سماها دار العلم « وحمل إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خزانون وبوّابون ورُتّب فيها قوم يدرسون للناس العلوم »[٣] . ولعل من الطريف أن الفاطميين — مع أنهم كانوا مقيدين بنحلة خاصة فيها تحجرٌ عقلى واسع — كانوا فى الوقت نفسه يدعون لدراسة الفلسفة والتعمق فيها حتى ليقول المقريزى : « إن من جملة المعرفة عندهم أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة »[٤] . ولعل سبب دعوتهم إلى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلا يؤدى إلى تبديلها ، فاحتاجوا إلى اللسان الجدل المزود بالفلسفة حتى يُحسن ذلك . ومهما يكن فإن مصر ظفرت فى العصر الفاطمى بنهضة علمية واسعة ، ولعل مما يدل على ذلك ما رواه المقدسى الذى زارها فى أواخر

---

(١) Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٣٤ .

(٣) خطط المقريزى ١/٤٥٨ .

(٤) خطط المقريزى ١/٣٩٥ .

القرن الرابع للهجرة من أنه رأى فى المسجد الجامع بها مائة مجلس وعشرة [1] ويقول ناصر خسرو : إن من رآهم فى مسجد الفسطاط لا يقلون فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغُرَباء والكُتَّاب الذين يحررون الصكوك والعقود [2] .

وهذه النهضة العلمية الواسعة كان يؤازرها نهضة أدبية واسعة أيضاً، فقد كان الفاطميون يرون من الضرورى لدعوتهم أن يكون حولهم مجموعة نفيسة من الشعراء والكتاب تنافح عن مذهبهم ، وقد أتوا من المغرب وفى ركابهم ابن هانئ الأندلسى يريدون أن يفخروا به ويشعره على المشرق كما قال المعز أول خلفائهم بمصر [3] ، وهو فخر لم يقفوا به عند ابن هانئ ، فقد عرفوا كيف يذيعون فى مصر نشاطاً واسعاً فى الشعر وصُنْعه بفضل جوائزهم ومكافآتهم ، وقد خصص العماد الأصبهانى مجلداً كبيراً فى خريدته وصفَ فيه آثار الشعراء الفاطميين وما كان من نماذجهم . وبإزاء هؤلاء الشعراء وُجدت طوائف من الكتَّاب الممتازين استخدمهم الفاطميون فى دواوينهم ، وعُنى الفاطميون بديوان الرسائل خاصة وسموه ديوان الإنشاء [4] ، وتكثر الإشارة فى الكتب التاريخية عمن كتبوا فى هذا الديوان . وهناك نص طويل تتناقله هذه الكتب ، يصف سلسل رؤساء الكتاب فى ديوان الإنشاء الفاطمى ، نجده فى صبح الأعشى وفى النجوم الزاهرة وحسن المحاضرة ، وجاء فى الكتاب الأول على هذا النحو : « لما ولى الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمى ، فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور ابن نسطوروس النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر النهركى ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين بن خيران

---

(١) أحسن التقاسيم (طبع أوربا) ص ٢٠٥

(٢) سفر نامه ص ٥٩ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٥ .

(٤) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى (طبع فان فلوتن) ص ٧٨ وكذلك كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ١٥١ .

ثم ولىّ الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزراة ، وأبو سعيد العميدىّ ، وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجلّ أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن الخلاّل أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى الفاضل البَيْسانى ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محموداً الأنصارى (وهو ابن قادوس السابق) ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلاّل قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم »[1] وهذا النص الطويل له طرافته من حيث إنه يذكر أن الفاطميين لم يفرقوا بين مسلم وذمى فى وظائف ديوان الإنشاء ، وما من ريب فى أن ذلك يدل على أنهم كانوا يطلبون لهذا الديوان مَنْ تفوّق فى تحبير الكلام وصوغه دون تفريق بين من هو من دينهم ومن هو من غير دينهم ، ومن هو من نحلتهم ومن هو من غير نحلتهم ، فالبليغ التام يتولى هذا الديوان بغض النظر عن دينه ومذهبه ، فالبلاغة هى مقياسه وهى موضع تقديمه ، ولعل مما يدل على مدى تقدير الفاطميين للكاتب الممتاز فى تلك العهود ما يرويه ياقوت عنهم من أنهم جعلوا راتب صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف دينار فى الشهر غير رسوم يتناولها عن السجلات والعهود وكتب التقليدات[2] ، وبينما يروى ناصر خسرو أن راتب قاضى القضاة كان ألفى دينار فقط[3] .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن النص الطويل السابق لكتاب دواوين الإنشاء

---

(١) انظر صبح الأعشى ١/٩٦ والنجوم الزاهرة ٧/٣٣٧ وحسن المحاضرة ٢/١٤٦ .

(٢) معجم الأدباء ٤/٥ .

(٣) سفرنامه ص ٦٥ .

فى العصر الفاطمى إنما عرض لرؤسائهم فقط ، ومن يرجع إلى كتب التراجم ليبحث هؤلاء الرؤساء يجدها لا تهتم بهم فى الغالب ، وخاصة بالمتقدمين منهم ، وكتب القلقشندى بتفصيل وإسهاب عن دواوين الإنشاء فى مصر ومع ذلك لم يعرِّف تعريفاً واضحاً بهؤلاء الكتاب ، وأيضاً فإنه لم يُعْنَ بحكاية آثارهم إذا نحن استثنينا قطعاً منثورة فيه عن ابن الصيرفى وابن قادوس والموفق ابن الخلال[1] ، ومع ذلك فإن ما رواه عن هؤلاء الثلاثة لايفسر فنهم تفسيراً كاملا ، وهل نستطيع أن نحكم برسائل عارضة على فن كاتب إن لم تكن تلك الرسائل من أمهات رسائله ، ويتصل بذلك أن هؤلاء الثلاثة جميعاً إنما كانوا فى أواخر العصر الفاطمى ، فما شأن سابقيهم ؟ وأى آثار تركوها ؟ والحق أن المؤرخين خاصموا كتّاب الفاطميين ولم يصفوهم وصفاً واضحاً ، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع ، وكان ينبغى أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بغضهم للفاطميين وتشيعهم ، وبين تقديرهم لآثار من نشأوا فى ظلال دواوينهم ، وإن الإنسان ليعجب حقًّا إذ يرى نهضة الكتابة فى العصر الفاطمى لا تكاد تَبين إلا من خلال السطور ، ومن أجل ذلك لم يتبين مؤرخو الأدب مدى ما كان فى هذا العصر من حركة أدبية مزدهرة ! وإن من يقرأ فى معجم الأدباء لياقوت يجده يذكر أن ابن خيران المتوفى عام ٤٣٢ هـ أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد ليعرضَ على الشريف المرتضى كى يودعه فى دار العلم هناك[2] . ويذكر عن العميدى الذى رأس ديوان الإنشاء بعد ابن خيران أن له كتاباً فى تنقيح البلاغة يقع فى عشر مجلدات ، وأن له كتاباً يسمى الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور ، وكتاباً آخر يسمى انتزاعات القرآن ، وإن فى هذين الكتابين ما يدل على ميل العميدى إلى نثر الشعر فى رسائله واقتباسه الكثير من القرآن الكريم ، وهما صفتان استمرتا فى النثر المصرى من بعده ، روى له ياقوت

---

(١) انظر فى رسائل ابن الصيرفى وابن قادوس وابن الخلال صبح الأعشى ١٠/٣١٨ .

(٢) معجم الأدباء ٤/٥ . صبح الأعشى ٨/٣٢٤ وما بعدها وانظر فى رسائل

شعراً واضحاً فيه أثر الجناس[1]، ولسنا ندرى هل كان يستخدمه فى نثره أولم يكن يستخدمه، لهذه السدود التى أقامها المؤرخون بيننا و بين آثار العصر الفاطمى، وأيضاً ليس لدينا نصوص واضحة عمن ولوا الديوان بعده فى عصر المستنصر، فقد توفى العميدى عام ٤٣٣ هـ وخلفه أبو الطاهر النهركى، وليس تحت أيدينا له رسائل نتعرف منها على فنه، إنما الذى تحت أيدينا حقًّا هو مجموعة من رسائل كاتب آخر لعهد المستنصر، ولم يكن من رؤساء ديوان الإنشاء، ولكنه كان من كتّابه الكثيرين وهو ابن الشخباء المتوفى عام ٣٨٢ هـ وربما كان أهم كاتب فاطمى احتفظت لنا المصادر بصورة واضحة من عمله، ونستمر بعد ابن الشخباء فنلتقى بابن الصيرفى الذى خدم فى الديوان من عام ٤٨٥ هـ إلى عام ٥٣١ هـ، ويقول ياقوت: إن له رسائل تزيد على أربع مجلدات، ولكن هذه المجلدات فُقدت، وما بقى من نثره لا يصوره تصويراً واضحاً، وكذلك الشأن فى ابن قادوس الذى خدم من بعده فى ديوان الإنشاء على الرغم من أن القاضى الفاضل كان يسميه صاحب البلاغتين، ولعل ما رواه صبح الأعشى عن الموفق بن الخلاّل يفصح بعض الشىء عن فنه، فى رسالة له تصنُّع واضح لاصطلاحات النحو، إذ يقول فى بعض جوانبها[2]:

«وراقب الله فيما ألقاه إليك، فقد فوّض إليك مقاليد البَسْط والقبض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصريف، والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبيه، والإخمال والتنويه، والإعزاز والإذلال، والإساة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وكل ما تحدثه تصاريف الأيام».

وإن مما لاشك فيه أن كتابة الرسائل باغت فى العصر الفاطمى مبلغاً عظيما من الرقى والاكتمال، بدت فيها منذ أوائل هذا العصر نزعة إلى السجع، فإن من يرجع إلى الكتاب الذى كتبه المعز لأحد قواد القرامطة — وهو كتاب

(١) انظر ترجمة العميدى فى معجم الأدباء ٢١٢/١٧.
(٢) صبح الأعشى ٣١٦/١٠.

طويل – يجد أكثره بُنِى على السجع[١] ، وقد روى صاحب صبح الأعشى عن العزيز نزار كتاباً فيه سجع كثير[٢] . وإذا تركنا القرن الرابع إلى القرن الخامس وجدنا صاحب النجوم الزاهرة يروى كتاباً صدر عن الخلافة الفاطمية ، بُنِى كله على السجع مع أنه طويل[٣] . ونستمر حتى نلتقى بابن الشخباء ثم ابن الصيرفى ثم ابن قادوس والموفق بن الخلال ، وكل هؤلاء بُنيت كتابتهم على السجع والتصنع فيه ضروباً من التصنع ، وربما كان ابن الشخباء كاتب عصر المستنصر خير من يعبّر عن ازدهار النهضة الفنية للنثر الفاطمى ، فقد بقيت لنا من أعماله طائفة صالحة تفسر طابع فنه ، بل طابع عصره فى الكتابة ، ولذلك سنقف عنده وقفة قصيرة .

ابن أبى الشخباء :

هو الحسن بن عبد الصمد بن أبى الشَّخْباء العَسْقلانى « من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعاً من ثنايا الأدب ، واجتناء لخبايا لسان العرب ، فقد كاشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبوقها وسابقها ، وكانت وفاته – رحمه الله – مقتولا بخزانة البنود – وهى سجن بمصر – سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة »[٤] ، ويقول ياقوت : كان ابن الشخباء « يلقب بالمجيد ذى الفضيلتين (الشعر والنثر) ، أحد البلغاء ، الفحصاء ، الشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة ، قيل إن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى منها استمد ، وبها اعتدّ . . . كتب فى ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر ، لأن فى رسائله جوابات إلى البساسيرى إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء أمراء زمانه »[٥] ، وذكره العماد الأصبهانى فى الخريدة فقال : « المجيد مجيد كنْعته قادر على ابتداع الكلام

---

(١) الاتعاظ للمقريزى ١٣٣ – ١٤٣ .
(٢) صبح الأعشى ٦/٤٣٤ .
(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .
(٤) الذخيرة : القسم الرابع من نسخة فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٣ .
(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ٩/١٥٢ .

ونَحْته، له الخطب البديعة ، والمُلَحُ الصَّنِيعة »[١] ، ويقول عنه ابن خلكان : « الشيخ المجيد أبو على الحسين بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلانى ، صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبَّرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى ، ويقال : إن القاضى الفاضل — رحمه الله — كان جُلُّ اعتماده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر أكثره »[٢] . وواضح من هذه النصوص أن من كتبوا عن ابن أبى الشخباء أشادوا ببلاغته ، كما أشاروا إلى أن القاضى الفاضل كان يحتذى على أمثلته ، وينهل من معين صياغته ، ولو بقيت رسائله إلى عصرنا لأمكن تتبع هذا الحكم ، وبيان الصلة بين الأديبين الكبيرين : أديب العصر الفاطمى وأديب العصر الأيوبى ، ولكن رسائله فقدت ، ومع ذلك بقيت منها بقية فى الذخيرة لابن بسام ومعجم الأدباء لياقوت ، وهى حقًّا تؤكد الصلة بين عملى الرجلين ، وانظر إلى ابن الشخباء يقول من رسالة يهنئ فيها بهزيمة أتْسِز ابن أوْق الغزّى الذى خرج فى الشام وقد كتب بها سنة تسع وستين وأربعمائة[٣] :

« قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذَخرَ للدولة الفاطمية — ثبَّتَ الله أركانها — من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية — خلَّد الله سلطانها — من حمى سوادها ، ونصَر أعلامها ، وضَمّ نَشْرها ، وحفظ سريرها ومنبرها ، بعد أن كان الأعداء — الذين ارتضعوا درّ إنعامها ، وتوسَّموا بشرف أيامها ، فطردت يدُ الاصطناع إملاقهم ، وأثقلت قلائدُ الإحسان أعناقهم — خفروا ذمم الولاء ، وكفروا سوابغ الآلاء ، ففجأتهم الحوادث من كل طريق ، ونعَب بهم غراب الشتات والتفريق واستباحتهم يد الشدائد ، وأتى الله بُنْيانهم من القواعد ، ولم تزل النفوس منذ طرق « أتسز » اللعين هذه البلاد ، وأنجم فيها أنجُمَ الفساد ، وتعدّى حدود الله وكلماته ، وتعرّض لمساخطته ونقماته ، عالمة بأن إملاء الحضرة العلية — مدّ الله ظلها على الكافة — لم يكن عن استعمال رُخْصة فى هذه الحال ، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال ، بل هو

---

(١) الخريدة : الجزء الخاص بشعراء مصر وفلسطين ورقة ١٤ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٣٣ .

(٣) معجم الأدباء ٩/١٦٤ .

أمرٌ رُكِّب فيه مَتْنُ التدبير ، وجرتْ بمثله المقادير ، واتُّبع فيه قوله تعالى : (فأمليْتُ للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان نَكير) ، فى حين خدعته المطامع المُرْدية ، إلى الأعمال القاهرة ، مؤملا انفصام عُروة الله المتينة ، وأفول ما توقد من شجرة مباركة زيتونة . . . والله المحمودُ على ما منح من هذه النعمة والمسئولُ أن يشدَّ ببقاء الحضرة العلية قواعد الإسلام ، ويَسِم بمحامدها أغفال الأيام ، ويستخدم لها السيوف والأقلام ، حتى لا يبقى على وجه الأرض مَفْحَصُ قطاة إلا وقد دوّخها سنابك خيولها ، ولا مَسْقَطُ نواة إلا وقد ركزتْ فيه صدور رماحها ونُصولها ، فقد دفعت . . خطباً جسيما ، واستلحقت من السياسة أمراً عقيما ، وأعادت شمل الأمة ملموماً نظيماً ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكان فضلُ الله عظيما » .

وأنت ترى من هذه القطعة أن ابن الشخباء يعنى بالتشخيص والتصوير كما يعنى بالاقتباس من القرآن الكريم . وهذان عنصران أساسيان فى فن القاضى الفاضل ، وهو كما يعنى بذلك يُعْنى أيضاً بأن يضمَّ كل لفظة إلى أختها ، وكل صورة إلى شاكلتها ، فإذا ذكر مفحص القطاة مثلا ذكر السنابك والخيول ، وإذا ذكر مسقط النواة ركز فيه الرماح والنصول ، وسنرى القاضى الفاضل يبالغ فى استخدام هذا العنصر من مراعاة النظير . وليس ذلك كل ما نجده عند ابن الشخباء من عناصر استمد منها القاضى الفاضل ، فهناك عناصر أخرى ، منها تصنعه لمصطلحات العلوم كقوله فى مطلع رسالة لبعض الوزراء وقد بلغه أن شخصاً هجاه عنده : « لو لم تَنْقُض الشريعة — أطال الله بقاء سيدنا — برفض المقالة ، عارية من البرهان والدلالة ، لكان ذلك فى الغريزة راتباً ، وفى حكم العقول واجباً »[1] ، فقد تصنَّع هنا لذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم العقول والدلالة . وكل ذلك يسوقه فى خفة تجعلنا لا نلحظه ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه استهل رسالة للأفضل بن بدر الجمالى بقوله : « خلَّد الله أيام الحضرة الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً ، وتقدَّمت واو العطف معطوفاً ، ولزمت

---

(١) الذخيرة : القسم الرابع ورقة ١٨٣ .

الأفعالُ اشتقاقاً وتصريفاً »[1]، وكما كان ابن الشخباء يتصنع لمصطلحات العلوم كذلك كان يتصنع للإتيان بجناس متكلف شبيه بجناسات أصحاب التصنع كقوله من رسالة إلى من يسمى صارم الدولة بن معروف[2] :

« جاءته مناقبُ الحضرة العلية فتمّ بها مناقبُ تميم ، وحكم لآل القعقاع أمر حكيم ، ونُصر لواء بنى نَصر ، وأبْدرت أهلّة بنى بدر ، ونبّه منبه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ، وضحك لعبسٍ عابس الدهر ، وراحت الكَمَلَةُ كاملة الفخر ، وزادت مغايظ الأزد ، وقشرتْ قُشَيْر عن بلوغ المجد ، وأغمدت سيوف بنى غامد ، وصارت هَمْدان كالجمر الهامد ، ومَذْحج كالعَنْس مذللة ، وحمير بالراية الحمراء متظللة ، وطوت طيِّئٌ عملها استخذاء وغضّت جَفْنة جفونها استيحاء ، فحرس الله محاسن الحضرة السامية التى جباهُ الأنام بها موسومة ، وتمم نِعَمَها التى هى بينها وبين الناس مقسومة » .

أرأيت إلى هذه المبالغة فى استخدام الجناس والاحتيال عليه بذكر هذه القبائل الكثيرة ؟ وأكبر الظن أن القارئ قد أحسّ هنا روح أصحاب التصنع ، ولكن لاتظن أن ابن الشخباء كان يعمم ذلك فى رسائله ، بل هو يَظْهر فيها من حين إلى حين ، وهذه سُنَّة الكتاب فى الأقاليم المختلفة ، فهم لا يستمرون عند مذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هم دائماً يتقلبون بين المذاهب والأذواق المختلفة ، فبينما ترى الكاتب يكتب رسالة من ذوق أصحاب التصنع ، إذا هو يكتب أخرى من ذوق أصحاب التصنيع ، أو من ذوق أصحاب الصنعة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأقاليم العربية لم تستحدث مذهباً جديداً فى تاريخ الأدب العربى لا نثره ولا شعره ، فقد وقفت عند صورة المذاهب الثلاثة من الصنعة والتصنيع والتصنع ، وكل ما أضافته إلى هذه المذاهب هو التنقل بينها فى غير نظام . وهذه الظاهرة كما تتصل بابن الشخباء تتصل بجميع كتّاب العصر الفاطمى المتأخر ، فليس بينهم من استطاع أن يبتكر مذهباً جديداً أو طريقة جديدة ، إنما دائماً الجمود عند المذاهب المسبوقة والطرق الموروثة .

---

(١) الذخيرة ورقة ١٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ٩/١٧٥ .

ومهما يكن فقد كان ابن الشخباء من كبار الكتاب فى العصر الفاطمى ، وهو من هذه الناحية يعتبر سجلاً طريفاً لتطور الكتابة فى هذا العصر ، فإن ما بقى من كتبه ورسائله يدل على خطأ من يذهبون إلى أن القاضى الفاضل هو أول كاتب كبير يظهر فى مصر ، ويبالغ بعض مؤرخى الأدب فى ذلك ، فينسبون إليه ما يسمى طريقة القاضى الفاضل ، وحقًّا إن القاضى الفاضل كان أكبر شخصية ظهرت فى الكتابة بعد العصر الفاطمى ، ولكن ينبغى أن لا نبالغ فى ذلك مبالغة تؤدينا إلى أن نرمى العصر الفاطمى بالتأخر فى الكتابة ، فإن القاضى الفاضل نفسه تخرَّج فى هذا العصر ، ولو لم يأت أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر لكان القاضى الفاضل من كتاب العصر الفاطمى ، بل لقد تمّ تكوُّن القاضى الفاضل فى هذا العصر نفسه ، وكان من كتَّاب دواوينه ، بل لقد كان يقلد تقليداً شديداً آثار كتّابه من أمثال ابن الشخباء وغيره ، وسنرى أنه لا يكاد يأتى بجديد فى استخدام العناصر الفنية بالقياس إلى صناعة ابن الشخباء ، إنما كل ما هنالك أنه اتسع بها ، ووسَّع طاقتها ، واستطاع أن ينفذ بها إلى كل ما أراد من تجويد وتحبير .

٥

الأيوبيون ونهضة النثر فى عصرهم

لا نكاد نتقدم فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى حتى يقوم الخلاف العنيف بين شاور وضرغام وزيرى العاضد ، وسرعان ما تتأجج نيران الحروب بينهما ، فيستعين شاور بنور الدين صاحب حلب ، وهو أكبر شخصية حينئذ كانت تُعْنَى بحرب الصليبيين ودفع موجاتهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وحدث أن ضرغامًا استعان بهم ضد خصمه ، فخشى نور الدين أن يستولى الصليبيون على مصر وأن يندفعوا منها إلى الاستيلاء على العالم العربى ، لذلك أرسل إلى شاور بنجدة كبيرة ، على رأسها أحد قواده وهو أسد الدين

شيركوه ، وجاء أسد الدين إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم الصليبيين وردّ الأمر إلى شاور إلا أنه قُتل فحلّ محله أسد الدين فى وزارة العاضد ، ولكن الموت عاجله ، حينئذ نرى صلاح الدين يتولى الوزارة مكان عمه ، ويَنْبهم الموقف فالخليفة شيعى ، ووزيره سنى ، وهو يتبعه من جهة كما يتبع نور الدين من جهة أخرى . ويُرسل نور الدين إلى صلاح الدين أن ينقل الخطبة فى المسجد الجامع إلى الخليفة العباسى ، ويقضى على نظام الحكم الشيعى ، فيصدع صلاح الدين بالأمر ، وينفذ مشيئة نور الدين . ثم تخدم الظروف صلاح الدين ، فإذا نور الدين يتوفّى بعد قليل ، فيستقل هو بمصر ، بل نراه يذهب إلى الشام فيستولى على ممتلكات نور الدين حتى يوحد العالم الإسلامى أمام الصليبيين ، ويستمر فيستولى على أجزاء من الموصل ، كما يستولى على بلاد العرب ، ويؤسس فى مصر دولة عظيمة هى الدولة الأيوبية التى كان أصحابها يلقبون أنفسهم بالملوك .

كانت الدولة الأيوبية دولة سُنّيّة ، لذلك أخذت تناهض التشيع الفاطمى ومظاهره فى مصر ، واتخذت لذلك طريقة منظمة هى إنشاء المدارس والمعاهد السّنية ، وقد بدأ صلاح الدين هذه الحركة ، فأنشأ طائفة من المدارس كى يدعم الدعوة السنية ، يقول ابن خلكان : « لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شىء من المداس ، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فعمل فى القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى رضى الله عنه . . وبنى مدرسة بالقاهرة فى جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وجعل عليها وقفاً كبيراً ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الفاطميين خانقاه ، ووقف عليها وقفاً طويلا ، وجعل دار عباس المذكور فى ترجمة الظافر العُبَيدى والعادل ابن السلاّر مدرسة للحنفية ، وعليها وقف جيد كبير أيضاً ، والمدرسة التى بمصر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشافعية ، ووقفها جيد أيضاً »[1] . وكما عُنى صلاح الدين بمحاربة التشيع فى مصر عُنى أيضاً بمحاربة التفلسف عناية

(١) وفيات الأعيان ٢/٤٠٢ .

شديدة ، يقول القاضى ابن شداد فى سيرته : « كان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة ، ولما بلغه عن السهروردى ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله »[١] وأكبر الظن أن لصلاح الدين يداً فى ضعف الحركة الفلسفية بمصر منذ عصره ، فقد تبعه العلماء يعنون بالدراسات الدينية والتاريخية واللغوية مهملين للدراسات الفلسفية ، واستمر ذلك طوال العصر الأيوبى وعصر المماليك أيضاً ، يقول بهاء الدين السبكى وهو من علماء عصر المماليك : « إن أهل مصر صرفوا همهم إلى علوم اللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن بخلاف أهل المشرق الذين استوفوا هممهم الشامخة فى تحصيل العلوم العقلية والمنطق »[٢] . ومعنى ذلك أن مصر استمرت مطبوعة بالطابع الذى أراده لها صلاح الدين حتى عصر المماليك وبعد عصرهم أيضاً ، وكأنما إعجاب المصريين بصلاح الدين وحروبه الصليبية جعلهم يقتدون بسيرته فى حياته العقلية .

ومن يرجع إلى سيرة ملوك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين يجدهم يهتمون اهتماماً بالغاً بالدراسات السنية وخاصة دراسة الحديث ، ومما يروى بصدد ذلك أن ابنه العزيز الذى خلفه على مصر سمع الحديث من الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى وأبى محمد بن برّى النحوى وغيرهم[٣] ، وكان عمه العادل الذى ولى مصر بعده معنيًّا بأرباب السنة ، صنف له فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس وذكر اسمه فى خطبته وسيّره إليه من بلاد خراسان[٤] . وكان الكامل ابنه يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات[٥] ، وكان محبًّا للحديث وأهله ، حريصاً على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف ، خرّج له أبو القاسم بن الصفراوى أربعين حديثاً ، وسمعها جماعة ، ويقولون : إن ابن برى وغيره أجازوا له رواية الحديث[٦] ، وقد بنى مدرسة عُرفت باسم دار الحديث الكاملية ، وهى ثانى دار عُملت للحديث ، أما أول

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٩ .
(٢) عروس الأفراح للسبكى ١/٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ٦/١٢٧ .
(٤) النجوم الزاهرة ٦/١٦٣ .
(٥) نفسّ المصدر ٦/٢٢٧ .
(٦) النجوم الزاهرة ٦/٢٢٨ .

دار فهى الدار التى أسسها نور الدين بدمشق[١] ، ونستمر حتى نلتقى بالملك الصالح نجم الدين أيوب فنراه يبنى المدرسة الصالحية ، وكانت تدرّس فيها المذاهبُ الأربعة [٢] ، وما من ريب فى أن ذلك كله يدل عن أن الأيوبيين بعثوا فى مصر اهتماماً واسعاً بالدراسات الدينية .

وإذ تركنا الدراسات الدينية إلى الكتابة الأدبية ، وجدنا الأيوبيين يجنون فى عصرهم ثمار النهضة الفنية التى رأيناها فى العصر الفاطمى ، وقد ظفروا فيما ظفروا من هذه الثمار بالقاضى الفاضل أحد كتّاب دواوين العصر الفاطمى ، وقرّبه منه صلاح الدين واتخذه وزيره وكاتبه ، وكان أبلغ كتّاب عصره ، فدفع العصر الأيوبى كله من ورائه فى دوائر نماذجه ، وما أتاحه لهذه النماذج من صفات أدبية ، وأعانته فى ذلك شخصية كبيرة أتت من المشرق ، هى شخصية عماد الدين الأصبهانى الذى نشأ بأصبهان ثم قدم بغداد وتخرّج فى المدرسة النظامية ، ولما تخرج فيها خدم الوزير يحيى بن هبيرة ببغداد ، ثم انتقل إلى دمشق وسلطانها يومئذ نور الدين ، فألحقه بديوان الإنشاء ، وتعرّف أثناء ذلك بصلاح الدين وقامت بينهما مودة وثيقة ، ولما أنشأ نور الدين المدرسة النورية فى دمشق أسندها إليه ، واستمر فى هذا العمل حتى توفّى نور الدين ، فانتقل إلى صلاح الدين وتعلق به ومدحه كثيراً كما مدح القاضى الفاضل ، رجاء أن ينظمه فى سلك سلطانه ، وعمل القاضى الفاضل على ذلك فقرّبه من صلاح الدين ، وأصبح الكاتبَ الثانى فى الدولة الصلاحية بعد القاضى الفاضل . وكان العماد أديباً كبيراً ، له ديوان شعر ورسائل كثيرة ، كما أن له الكتاب المشهور : «الفَتْح القُسِىّ فى الفَتْح القُدْسى» ، يصف فيه فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ، وأيضاً له الخريدة . وهو ينهج فى كتاباته نهج أصحاب التصنع فى عصره ، وقد كان القاضى الفاضل يذهب غالباً هذا المذهب مستنّاً فى ذلك بكتّاب العصر الفاطمى وعلى رأسهم ابن الشخباء ، فتآلف الكاتبان فَنّيّاً كما تآلفا اجتماعيّاً ، ولعل مما يثبت عناية الشيخين بالتصنع ما يروى من أن

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٢٩ . (٢) حسن المحاضرة ٢/١٥٦ .

العماد لقى القاضى الفاضل يوماً وهو راكب على فرس فقال له : سرْ فلا كبَا بك الفرس ، فقال له القاضى الفاضل تَوًّا : دام عُلا العماد[١] وأكبر الظن أن القارئ لا يزال يذكر ما مر بنا عند الحريرىّ مما كان يسميه « ما لا يستحيل بالانعكاس » وكان الحريرى يأتى به ليدل على مقدرته البالغة ، وها نحن الآن فى مصر بعد الحريرى بنحو نصف قرن نقرأ فى آثار مشاهير الكتّاب ، فإذا هم يتجهون نفس الوجهة من الإطراف بغرائب العبارات ، وهو إطراف لا يأتى من المعنى ، وإنما يأتى من الشكل الخارجى ، إذ يستطيع الأديب أن يستخدم عُقْدة من عقد التعبير ، وهو غالباً لا يأتى بعقد جديدة ، وإنما يستخدم بعض العقد السابقة ، فإذا القاضى والعماد جميعاً يعمدان فى جملتين إلى استخدام « ما لا يستحيل بالانعكاس » فهما حتى يدلاّ على مقدرتهما وبراعتهما وأنهما يستطيعان أن يأتيا بعبارات تُقْرَأ طَرْداً وعكساً . والغريب أن العماد مع أنه جاء من المشرق موطن التصنع لم يستطع أن يتفوق على القاضى الفاضل الذى تخرج فى ديوان الفاطميين ، وهذا نفسه دليل واضح على أن هذا الديوان ارتقت فيه الكتابة فى العصر المتأخر رقيًّا لا يقل عن رقيها فى المشرق . ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أستاذ عصره غير منازع ، وشهد له ابن خلكان بذلك ، إذ وازن بين كتبه فى فتح بيت المقدس وما كتبه العماد وغيره ، فقال : « إنه رئيس هذا الفن ، وإذا شرع فى شىء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يُجاريه ولا يباريه »[٢] ، ومن أجل ذلك سنقف عنده لنتبين نهضة الكتابة الفنية فى العصر الأيوبى وما امتازت به من خصائص أدبية وهى خصائص استمرت تخضع لها الأجيال التالية خضوعاً شديداً .

القاضى الفاضل

هو عبد الرحيم البَيْسانى ، ولد فى عَسْقلان ، فهو عسقلانى الأصل كابن الشخباء ؛ وولى أبوه قضاء بَيْسان من قبل الفاطميين فنُسب هو إليها . ولما

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٨ ووفيات الأعيان ٢/٧٥ . (٢) وفيات الأعيان ٢/٣٩٥ .

شبّ أرسل إلى ديوان الإنشاء فى القاهرة ليتخرج فيه ، فحضر إلى مصر فى عهد الحافظ[١] (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) وتتلمذ على أشهر الكتّاب وكان الموفق ابن الخلاّل حينئذ رئيسَ ديوان الإنشاء ، وكان معه ابن قادوس الأديب المشهور ، فلزمهما ، ويقول الرواة : إنه لما مثل بين يدى الموفق سأله : ماذا أعددتَ لفن الكتابة ؟ فأجابه : إنى أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة ، فأمره أن يحلّ شعر الحماسة كله[٢] ، ثم ما زال به يدرّبه على الكتابة حتى نبغ فيها ، ولكنه لم يستمر مع الموفق ، بل ذهب إلى قاضى الإسكندرية المسمى بابن حديد فكتب عنه كتباً حبَّرها تحبيراً ممتازاً ، ويقال إن الوزير : العادل ابن رزّيك (٥٥٦ — ٥٥٨ هـ) اطلع على بعضها : فأعجب بها ، وطلبه ليسلكه فى كتّاب ديوانه ، فعاد إلى القاهرة ، ومكث فى ديوان الإنشاء حتى وفد أسد الدين شيركوه فقرّبه منه واتخذه كاتبه ، ولما توفى استخدمه صلاح الدين . ويظهر أنه أخلص لهذه الأسرة منذ قدومها ، فإننا نجد صلاح الدين يتخذه وزيره ومشيره كما يتخذه كاتبه ، وروى عنه أنه قال : «والله ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل» ، ويقول ابن فضل الله العمرى : «كان القاضى الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها ، وصاحبها ومشيرها ، والحاكم فى كلها ، والمجهِّز لبعوثها ، ومع هذا كله كان لا يزال منكَّداً مُبْتَلًى بضَنا قلبه وجسمه ، ومرض هَمه وسقمه . . . ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفراً فى كل مرة ، وكان العماد ينوب عنه»[٣] ، وذكر القاضى نفسه علته فى أحد خطاباته فقال : «والمملوك فى حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضَىْ قلبٍ وجسد ، ووجع أطرافٍ وعليل كبد»[٤] ، وكما كان القاضى عليلا كان — على ما يظهر — تزورّ عنه العين ،

(١) تختلف الروايات فى الخليفة الذى جاء القاضى الفاضل فى عصره إلى مصر هل هو الحافظ أو هو ابنه الظافر ، ورجحنا الأولى لأنها هى التى تتلاءم مع تاريخ القاضى الفاضل ، انظر ابن خلكان ٢/٤٠٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٢/٤٠٨ .

(٣) مسالك الأبصار : نسخة خطية بدار الكتب منقولة عن نسخة فوتوغرافية بها ، الجزء السابع ، ورقة ٦٥٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ٦/١٢٨ .

قال الأسعد بن مماتى : «كان القاضى الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حَدَبَة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطيلسان ، حتى لا تظهر للناس»[١] .

وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة وتجويده ما لم يبلغه أحد فى عصره ، يقول العماد الأصبهانى فى حقه : « رب القلم والبيان، واللسَن واللسان ، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ما سُمع فى الأوائل ، ممن لو عاش فى زمانه لتعلق بغُباره ، أو جَرى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويُطْلع الأنوار ،ويبدع الأزهار »[٢]. ويقول النويرى: «إلى القاضى الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرَّت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رَوِيَتْ ذوو الفضائل واغترفت، وأمام فضله ألقت البلاغةُ عصاها، وبين يديه استقرت به نَواها ، فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة »[٣] . وقد أشاد به وبفنه كل من تعرضوا لترجمته كما أشار كثير منهم — وعلى رأسهم العماد الأصبهانى — إلى أنه صاحب طريقة ، أو كما يقول العماد شريعة جديدة ، ولكن ينبغى أن لا نظن من ذلك أن القاضى الفاضل ابتكر مذهباً جديداً فى تاريخ النثر العربى ، إنما كل ما هناك أنه قلَّد أصحاب التصنع فأحسن التقليد . ومن المهم أن نعرف أن الكتَّاب فى الأقاليم المختلفة منذ القرن السادس أخذوا يُغْمَرون بذوق التصنع فى الكثير الأكثر ، وقلما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع ، وبدأت هذه الموجة فى مصر لا بالقاضى الفاضل ولكن بابن الشخباء الذى عرضنا له فى العصر الفاطمى ، والقاضى الفاضل نفسه حين كان يكتب فى العصر الفاطمى كان يكتب بهذا الذوق ، وانظر إليه يستهل رسالة كتب بها عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين[٤] :

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس (طبع بولاق) ١/٧٥ . (٣) نهاية الأرب (طبع دار الكتب) ٨/١ .
(٢) وفيات الأعيان ١/٢٨٤ . (٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ٧/٧٩.

« كتابُنا — أطال الله بقاء المليك — عن مودة ظاهرة الأسباب ، متظاهرة الأنساب ، ضافية جلبْاب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكَّر معروفها ، ووفود فوائد لا يتصدَّع تأليفها ، ومساعى مساعد لا ينقض معروفها ، ولا يُنْقَضُ مَسُوفها[1] ، وسعادة بالخلافة التى عَذَقَ[2] به أمرها ، وأوضح سرها ، وملأ سرائرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقمرها » .

وهذه الصورة من التعبير وما يطوى فيها من تشخيص وجناس وإمعان فى هذا الجناس هى الصورة العامة لكتابة القاضى الفاضل ؛ ومن يرجع إلى بقية هذه الرسالة فى صبح الأعشى يجد فيها ما اشتهر به من اقتباسه لآى الذكر الحكيم ، كما يجد اهتمامه البالغ بالتنظير ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إن فن القاضى الفاضل استوى له نهائيًّا فى العصر الفاطمى . ونحن نعرض على القارئ قطعاً من رسالة تعتبر أشهرَ ما دبَّجه — وهى رسالته عن صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد يزف إليه البشرى بفتح بيت المقدس — حتى يطلع على خصائصه الأدبية فى أروع أثر أدبى عُنى به وبتدبيجه ، وهو يستهلها على هذا النمط [3] :

أدام اللهُ الديوان العزيز النبوىّ الناصرىّ ، ولا زال مظفَّر الجدِّ بكل جاحد ، غنىَّ التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى على اقتناء مُطلقات المحامد ، مستيقظَ النصر والسيفُ فى جفنه راقد ، واردَ الجود والسحابُ على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل وإن كان لا يُلْقَى إلا بشكر واحد ، ماضىَ حكم القوم بعزم لا يمضى إلا بنسل غَوِىّ وَرِيْش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خَيْلا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد » .

وأنت ترى القاضى الفاضل فى هذه القطعة الصغيرة عُنى — كما عُنى فى مستهل الرسالة العاضدية — بألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وذهب يطيل فى عباراته حتى يحقق ما يريد من جناس وتنظير وتشخيص ، وما من شك فى

---

(١) مسوفها : مؤجلها .
(٢) عذق به : اختص .
(٣) صبح الأعشى ٦/٤٩٦ وابن خلكان ٢٠/٣٩٢ .

أننا نحس فى كل ذلك ذوق أصحاب التصنع ، إذ نراه يحاول أن يمرن أسلوبه على أن يحمل أوسع ما يمكن من جناسات منقوصة وغير منقوصة واستمر فى الرسالة فسنراه يقول عن صلاح الدين وفتحه لبيت المقدس إنه :

« فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهارُ به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأنْ واره ؛ فإنه نور لا تكنُّه أغساق السُّدَف ، وذكرٌ لا تواريه أوراق الصحف . وكتابُ الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظَّتْ قناته شفقاً ، وطارت فِرقه فَرَقاً . . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغَضَّت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطَفَ الكرى من الجفون ، وجُدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفةً بالمنون ، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الفكر مهتومة ، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أصحاب المَشْأمة إلى أصحاب الميمنة » .

وواضحٌ أن سمات القاضى الفاضل التى رأيناها منذ مطلع الرسالة لاتزال هى نفسها ، فهو يعمم فى جميع جوانبها ميله الشديد إلى التشخيص كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وكان ما يزال يستخدمه فى جميع أشكاله من تامة وغير تامة ، واستهدفت فى أثناء ذلك لأن يُورِّى بين كلمة « بأنواره » وكلمة « بأنْ واره » وقاده استهدافه لهذا النوع من الجناس إلى أن يستخدم التورية كثيراً فى نثره ، وقد نسب القدماء إليه استخدامه هذا اللون لأول مرة فى تاريخ أدب مصر الإسلامية[1] ، ولكن من يقرأ شعر الشريف العقيلى فى المغرب[2] والخريدة[3] يجد أن هذا اللون عُرف فى مصر منذ أوائل القرن

---

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة الخيرية) ص ٢٤١ .

(٢) المغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٢٠٧ ، ٢٤٤ .

(٣) الخريدة : قسم شعراء مصر . (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/٦٣ .

الخامس ، وكل ما يمكن أن يضاف إلى القاضى الفاضل أنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر . ومهما يكن فقد كان القاضى الفاضل يُعْنى بأن تضمّ كتبه عناصر مذهب التصنع وخاصة عنصر الجناس والتشخيص وتضمين الشعر ثم عنصر الاقتباس من آى القرآن الكريم على نحو ما نجد فى القطعة السابقة إذ نظم فى عباراته قوله تعالى : « وضُربت عليهم الذلة والمسكنة » ، وكذلك قال : « وبدّل الله مكان السيئة الحسنة » وقال : « من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة » وفى هاتين العبارتين ألفاظ من القرآن الكريم . ومع ذلك فعناصره الفنية التى يستخدمها لم نتبينها كلها حتى الآن ، فهناك عنصر مهم كان يستخدمه فى كتابته وهو عنصر التصنع لمصطلحات العلوم ، واستمر فى الرسالة الآنفة فسرّاه يقول :

« كان يبدّل المذابح منائر والكنائس مساجد ويبوّئ بعد أهل الصُّلْبان أهل القرآن للذب عن دين الله مَقاعد، ويُقرُّ عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصرُ منه ومن عساكره بجارٍّ ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يُخاف زلزاله وزياله إلى يوم النَّفْخ فى الصور » .

ولا شك أن القارئ قد لاحظ ما نريد أن نشير إليه ، وهو أن القاضى الفاضل تصنَّع هنا لذكر الجار والمجرور وراعى النظير فذكر كلمة « تعلق » وكل ذلك ليستتم ما يدل به على براعته فى فنه ، وهو حقًّا لم يكن يكثر من التصنع لمصطلحات العلوم ، ولكنه يظهر على كل حال فى رسائله ، واستمعْ إليه يقول من رسالة أخرى[1] :

« سلام الله الأطيب ، وبركاته التى يستدرّها الحُضَّر والغُيَّب ، وزكواته التى ترفع أولياءه إلى الدرَج ، ونعمه التى لم تجعل على أهل طاعته فى الدين من حَرَج ، على مولانا سيد الخلق ، وسادّ الخرْق ، ومسدّد أهل الحق ، وواحد الدهر الذى لا يُثنَّى ، وإليه القلوب تُثْنَى ، ولا يقبل الله جمعاً لا يكون لولاته

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥١٥ .

جمع سلامة لا جمع تكسير ، ولا استقبال قبلة ممن لا تكون محبته فى قلبه تقيم ، واسمه فى عمله إلى الله يسير » .

وقد بدتْ هنا رغبة القاضى فى التصنع لمصطلحات النحو بأكثر مما بدت فى رسالة فتح القدس ، فهناك كان يتخفف ، أما هنا فإنه يطيل فى تصنعه لمصطلحات النحو إطالة تجعل الإنسان يلاحظها ، إذ نراه يذكر الواحد والمثنى ثم الجمع ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقف ليذكر جمع السلامة وجمع التكسير ، وأكبر الظن أن فن القاضى الفاضل قد اتضح لنا الآن ، فهو لا يعدو فى عناصره الأساسية ما سبق أن رأيناه عند ابن الشخباء . وهذا نفسه هو ما يجعلنا نؤمن بأن القاضى الفاضل لم يأت بطريقة جديدة تخالف الطرق الموروثة ، بل لقد كان يعيش — كغيره من أدباء عصره — فى الإطار الفنى العام لمذاهب المشرق ، وكان يعجب خاصة بمذهب التصنع وما وصل إليه ابن الشخباء مواطنه فى استخدامه ، فذهب يتعلق بطرائفه من مصطلحات العلوم والمصطلحات الأخرى من التشخيص ومراعاة النظير وألوان البديع من طباق وغيره ، وتعلق بالجناس خاصة على سُنَّة أصحاب التصنع فاستخرج منه غرائب كثيرة كقوله فى إحدى رسائله[1] :

« الحمد لله الذى صدقه وَعْدَه ، وأورثه الأرض وحده ، وجدَّد علاه ، وأعلى جَدَّه ، وأسعد نجمه ، وأنْجم سعده ، ووعده نُجْحه ، وأنجح وعده ، وأورده وصفه ، وأصفى وِرْده » .

وفى هذه القطعة ما يدل على مدى احتفال القاضى الفاضل باستخراج كل ما يمكن من أشكال الجناس الهندسية ، ولعل القارئ يلاحظ أنه تفد عليه الآن صور الجناس المعقدة التى مرت بنا عند الحريرى والحصكفى خاصة ، إذ كان يعجب بهذا الضرب من الجناس المقلوب ، ونما هذا الذوق فى الأقاليم المختلفة ، وكان القاضى الفاضل داعيته فى مصر إذ كان ينحو بأسلوبه

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥١١ .

جملة نحو أصحاب التصنع ، وليس معنى ذلك أن أسلوبه كان ضعيفاً أو رديئاً فقد كان لديه من البراعة الفنية ما جعله ينهض بصعوبات التصنع دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من أثقال ، ولكنا لا نستمر بعده حتى نحس أنها أصبحت أثقالا غليظة . وقد ذكرنا أنه عُنى فى كتابته بالتورية ، وساق صاحب خزانة الأدب من أمثلتها قوله[1] :

« فى يوم شديد المطر والبرد ، والخادم فى رأس جبل يتلقى الرحمة غَضَّةً قبل أن يبتذلها الناس ، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس ، ويتلقى الرعد بالرعدة ، وإذا السماء انشقت استصحاها المملوك بالسَّجْدة » .

فقد وَرَّى تورية واضحة فى كلمتى « وإذا السماء انشقت » و « السجدة » ولكن يظهر أن القاضى لم يكن يكثر من ذلك فى رسائله . ونحن لا نستطيع أن نزعم بأن هذا العمل مذهب جديد للقاضى الفاضل ، فهو ليس أكثر من لون من ألوان البديع وجده مستخدماً قبله عند الشعراء الفاطميين فأدخله فى نثره ، ومن يدرى ؟ ربما سُبق بمن استخدمه قبله من الكتاب فى العصر الفاطمى نفسه . ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أبلغ كتّاب العصر الأيوبى ، وقد ظلت المصطلحات التى يستخدمها فى فنه أساسية عند جميع الكتّاب المصريين من بعده ، حتى ليقول النويرى : « إن كل فاضل بعد الفاضل فضْلة »[2] ولم يكن هذا إحساس النويرى وحده ، بل كان إحساس جميع الكتاب بعده ، فقد اتخذوا آثاره مثلهم الأعلى الذى يحتذونه ويقلدونه ، ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا إن العصور التى تلته فى مصر كان أصحابها يصوغون دائماً على مثاله ، وينسجون على منواله .

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٤٣ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ٨/٢ .

٦

المماليك وامتداد النهضة فى عهدهم

تُطلق كلمة مماليك على ضرب من الرقيق كان يؤسَر فى الحروب أو يباع فى الأسواق . وأول من استخدم هؤلاء المماليك فى شئون الحكم والسياسة المعتصم الخليفة العباسى ، فقد جلب منهم جماعة كبيرة استخدمها فى حروبه ، وكان يجلبهم من شباب أواسط آسيا الأشدّاء . ونحن نعرف قصة هؤلاء المماليك الأتراك فى الدولة العباسية ؛ إذ سرعان ما انتقل إليهم تصريف الأمور ، وأصبحوا هم الحاكمين بأمرهم ، أما الخليفة فكان يحكم حكماً اسميًّا . وكان صلاح الدين ومولاه نور الدين يستعينان فى حروبهما ضد الصليبيين بقبيل من هؤلاء الأتراك : ولما جاء الصالح أيوب جمع حوله جيشاً كبيراً منهم وبنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة ، لذلك سُمُّوا المماليك البحرية ، وسرعان ما أصبحوا هم المتحكمين فى كل أمور الدولة كما أصبح لهم سلطان كبير ، فقتلوا «توران شاه» آخر الملوك الأيوبيين وولوا عليهم « شجرة الدرّ » زوج أبيه ، فتزوجها أيبك التركمانى وأدار هو دفّة الأمور بنفسه ، ولكنها اختلفت معه فقتلته ، فتولى ابنه ، وفى عهده قتلها المماليك انتقاماً ، ثم عُزل ، وتولى الحكم من بعده قُطُز ، وفى عهده هَزَمت جيوشُه وعلى رأسها الظاهر بيبرس جيوش هولاكو التترى ، وكان ذلك سبباً فى التماع اسم الظاهر ، فولى الحكم ، وفى عهده انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة عام ٦٥٦ للهجرة ، وخلفه سلاطين أشهرهم قلاوون وابنه الناصر ، ويظل الحكم فى تلك الأسرة حتى يسلبه منها برقوق زعيم المماليك الجراكسة الذين جلبهم آل قلاوون وأسكنوهم بروج القلعة ، ولذلك سموا المماليك البُرْجية ، ويخلف برقوق سلاطين مختلفون ، منهم السلطان « شيخ » الملقب بالمؤيد ، وما تزال مصر فى أيدى المماليك البرجية حتى يفتحها العثمانيون فى عام ٩٢٣ للهجرة .

وكانت مصر فى عهد المماليك تعتبر زعيمة العالم الإسلامى ، إذ وقفت دون موجة التتار التى اكتسحت شرق هذا العالم حتى الشام ، كما وقفت دون موجة الصليبيين وردتهم عن بلاد الإسلام ، وقد انتقل إليها الخليفة العباسى ، وفى هذا الانتقال ما يرمز إلى أهميتها فى تلك العصور ، إذ أصبحت موئل الإسلام من طرف ، كما أصبحت موئل العلم والأدب من طرف آخر ، فقد هاجر إليها العلماء والأدباء من كل صوب حتى ينعموا بما فيها من حياة آمنة مرفهة ، ويظهر أن مصر كانت على جانب عظيم من الرخاء واليسر فى هذا العصر المملوكى ، ولذلك كثرت فيها العمارة حتى قالوا إنه « بُنِى فى أيام الملك الظاهر ما لم يُبْنَ فى أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات »[1] وكذلك اشتهر عصر الناصر بن قلاوون بكثرة العمائر فى مصر والشام . وفى هذا ما يدل — من بعض الوجوه — على ثروة مصر فى هذا الحين ، ولعل مما يدل على ذلك أيضاً ما يقال من أن الناصر حَجَّ ذات مرة فكانت تُمَدُّ له مائدة فى طريقه وسط حديقة مصنوعة ، وعليها الفاكهة والزهور ، وكان هذا المنظر يبهر الناس فى صحراء بلاد العرب ، وقد قالوا إن إحدى زوجاته أنفقت فى حجها مائة ألف دينار ، كما قالوا إنه أنفق فى زواج كل بنت من بناته ثمانمائة ألف دينار[2] ، وما من ريب فى أن ذلك يدل بعض الدلالة على ما بلغته مصر فى عصر المماليك من ترف وثراء .

ولعل من الغريب أن المماليك — على الرغم من أنهم كانوا من الرقيق — عُنُوا بالحركة العلمية على نحو ما صنع سادتهم من الأيوبيين ، فبنوا المدارس وأغدقوا عليها الأموال ، وكان أول من استنَّ هذه السنة الظاهرُ بيبرس ، فقد أنشأ مدرسة كبيرة هى المدرسة الظاهرية ، وكان لها أربعة إيوانات لتدريس الفقه الشافعى والحنفى وتدريس الحديث وقراءات القرآن ، كما كان بها مكتبة

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦ .

(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر تأليف وليم موير وترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٩٠ .

تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم[١] ، وقد احتذى الظاهرَ المنصور قلاوون ، فبنى مدرسة كبيرة سميت المدرسة المنصورية ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة ، كما كان يُدرس فيها التفسير والحديث ، وأيضاً كان يُدرس فيها الطب[٢] ، ثم جاء الناصر ابن قلاوون فأنشأ مدرسة عظيمة ورتب فيها دروساً للمذاهب الأربعة، ويقول المقريزى إنه أدرك هذه المدرسة[٣] ، وبنى السلطان حسن من بعده مدرسة كبيرة ، يقول المقريزى عنها إنه لا يُعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها ، ويقول إن العمارة استمرت فيها مدة ثلاث سنين لا تنقطع ، وإنه كان يُصرف على عمارتها يومياً عشرون ألف درهم ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة[٤] . ثم جاء المماليك البرجية وعلى رأسهم برقوق الذى أنشأ مدرسة لدرس المذاهب الأربعة ودَرْس التفسير والحديث وقراءات القرآن[٥] ، وتبعه الملك المؤيد شيخ فابتنى هو الآخر مدرسة كبيرة[٦] . وكل ذلك يدل على مبلغ عناية المماليك بالحركة العلمية وتشجيع العلماء ، وقد عرف المؤيد شيخ من بينهم بأنه كان شاعراً وموسيقياً[٧] ، ويقول السيوطى نقلا عن ابن حجر إنه « كان معه إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينىّ ، فكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً »[٨] .

وإذا كان المماليك عُنوا بالحركة العلمية فإنهم عنوا كذلك بالحركة الأدبية، وقد كان لديوان الإنشاء عندهم منزلة كبيرة ، وكان لا يوظَّف فيه إلا من اشتهر بالبلاغة ، وأوتى أسرار البيان والفصاحة ، وكثيراً ما ارتقى كاتب

---

(١) خطط المقريزى ٢/٣٧٨ وحسن المحاضره ٢/١٦٠ والنجوم الزاهرة ٧/١٢٠ .

(٢) خطط المقريزى ٢/٣٧٩ وحسن المحاضرة ٢/١٦٠ .

(٣) خطط المقريزى ٢/٣٨٢ وحسن المحاضرة ٢/١٦٠ .

(٤) حسن المحاضرة ٢/١٦٢ .

(٥) حسن المحاضرة ٢/١٦٣ .

(٦) حسن المحاضرة ٢/١٦٣ .

(٧) تاريخ دولة المماليك لموير ص ١٣٢ .

(٨) حسن المحاضرة ٢/٨٩ .

الإنشاء عندهم إلى مرتبة الوزارة . وقد كُتبت فى هذا العصر أكبر الموسوعات الأدبية من مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العُمَرى، و« صبح الأعشى فى صناعة دواوين الإنشا» للقلقشندى، و«نهاية الأرب» للنُّوَيْرى ، و«الخطط» و«السلوك» للمقريزى . ولولا هذه الكتب ما استطعنا اليوم أن نؤرخ للحركات الأدبية فى مصر أثناء العصور الوسطى، ويظهر أن القوم اتجهوا هذا الاتجاه فى التأليف مخافة ضياع العلم ، إذ فُقد كثير من الكتب حتى عصرهم ، فرأوا أن يكتبوا موسوعات تغنى عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر ، ومن أهم كتب التاريخ الكبيرة فى هذه العصر كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وعقد الجُمان للعينى .

وأكثر كتابات هذا العصر ينتشر فيها السجع ، ومن الكتب التاريخية التى بُنيت على السجع بناء كتاب «عجائب المقدور فى نوائب تيمور»لابن عرب شاه، واستمرت كتابات الرسائل فى هذا العصر مطبوعة بالطابع الذى رأيناه عند القاضى الفاضل من ميل إلى استخدام ألوان البديع من جناس وطباق وتصوير ثم الاقتراض من ألفاظ العلوم ومصطلحاتها . ومن أشهر كتّاب هذا العصر ابن فضل الله العمرى ، وابن نباتة ، ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أشهر الثلاثة ، وكتاباتهم جميعاً تمتاز باستخدام فنون البديع وألفاظ العلوم ، وعُنوا عناية خاصة بلون التورية كقول ابن نباتة من توقيع لشخص بنظر مدرسة[1] :

« وكيف لا وهو نعم الناظر والإنسان ، وفى مصالح القول والعمل ذو اليدين واللسان ، وذو العزائم الذى تقيّدت فى حبه الرتب ومن وجد الإحسان » .

فقد وَرّى فى الناظر والإنسان تورية واضحة ، ولم يكتف بذلك بل رأيناه يعمد إلى الاقتضاب فى آخر العبارة أو ما كانوا يسمونه حينئذ بالاكتفاء ، إذ ختم عبارته بقوله « ومن وجد الإحسان » وقطع وهو يريد الشطر المشهور « ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا » ، وهذا الاكتفاء إنما جاء من استخدام

---

(١) صبح الأعشى ١/٣٠٤ .

أساليب القرآن الكريم لأن فيها حذفاً كثيراً فذهبوا يتأثرونها فى هذا الجانب ، ولا تظن أن الاكتفاء ظهر لأول مرة فى تلك العصور فهو قديم إذ نجده فى العصر الفاطمى عند ابن قادوس [١] كما نجده من بعده فى العصر الأيوبى[٢] ، ونستمر فنجده فى هذا العصر عند ابن نباتة وغيره ، وإنه لينبغى أن نقف وقفة قصيرة عند أشهر كتّاب هذا العصر وهو محيي الدين بن عبدالظاهر حتى تتراءى لنا طبيعة الكتابة فى العصر المملوكى وما تتسم به من شارات أدبية وسمات فنية .

محيي الدين بن عبد الظاهر

عاش محيي الدين فى القرن السابع الهجرى إذ توفى عام ٦٩٢ للهجرة[٣] ، وقد ولى ديوان الإنشاء فى عهد بيبرس وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل[٤] ، وكان له فضل كبير فى وضع مصطلحات ديوان الإنشاء لهذه العصور ، وقد استمر الكتّاب من بعده يلتزمون هذه المصطلحات ، وإن فى هذا الالتزام ما يدل على قيمته لدى معاصريه فقد كانوا جميعاً يُشيدون به ، يقول النويرى : « كان محيي الدين أجلّ كتاب العصر وفضلاء المصر وأكابر أعيان الدول ، والذى افتخر بوجوده أبناء عصره على الأوّل ، له من النظم الفائق ما راق صناعةً وحسناً ، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حُجّة ، وطريقه فى البلاغة أسهلُ طريق وفى الفصاحة أوضح محجّة »[٥] ، وإذا رجعنا نبحث هذه الطريقة التى يشير إليها النويرى وجدناها هى الطريقة الفاضلية نفسها[٦] ، فمحيي الدين يستخدم البديع ويتصنع لاصطلاحات العلوم ويكثر من الاقتباس لآى الذكر الحكيم ،

---

(١) انظر الخريدة ١/٢٣٠ .
(٢) خزانة الأدب للحموى ص ١٢٦ .
(٣) بدائع الزهور ١/١٢٥ . وانظر فوات الوفيات ١/٢٧١ .
(٤) انظر بدائع الزهور ١/١١٠ وكذلك ١/١١٨ ، ١/١٢٥ .
(٥) نهاية الأرب ٨/٣٠١ .
(٦) فوات الوفيات ١/٢٧١ .

كما يكثر من تضمين الشعر ، ونحن نسوق قطعة من كتاب تعزية كتب به عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يخبره بوفاة ابنه علاء الدين علىّ ، وكان قلاوون عهد له فى الأمر من بعده ، ثم أدركته الوفاة[1] :

« المملوك يخدم خدمة لا يذود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر كارث ، ولا تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ، ويطلع العلم الكريم على ورود مثال كريم ، يتضمن ما كان حدث من رُزء تلافاه الله بتناسيه ، وتوافى هو والصبر فتولّى التسليم بتبيين عاسيه[2] ، وتمرين قاسيه ، فشكرنا الله على ما أعطى وحمدناه على ما أخذ ، وما قلنا هذا جزع قد انتبه ، إلا قلنا هذا تثبت قد انتبذ ، ولا توهمنا أن فلذة كبد قد اختُطفت إلا وشاهدنا حولنا من ذريتنا والحمد لله فِلَذ ، وأحسنّا الاحتساب ، ودخلت الملائكةُ علينا من كل باب ، ووفّانا الله أجرَ الصابرين بغير حساب . . وبكتاب الله وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء نضرب به عن كل رثاء صفحاً ، وما كنا مع الله — والمنة لله — نُعطى لمن يؤنب ويؤبّن أذنا . ولنا بحمد الله ذرّية دَرّية[3] ، وعقود . . . والشكر لله كلها دُرّية :

إذا سيدٌ منهم خلا قام سيدٌ قؤولُ لما قال الكرام فعولُ

ما منهم إلا من نظرَ سعدَه ومن سَعْدُه يُنْتَظَرُ ، ومن يحسن أن يكون المبتدا ، وأن تَسُدَّ حاله بكفالته وكفايته مسدّ الخبر ، (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) لاسيما مَن الدينُ به إذ هو صلاحُه أعرف ، ومن قيل لبناء ملكٍ هذا عليُّه قد وهَى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعد أشرف . . . والرغبة إلى الله تعالى فى أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمة ، وكما لم يجعلها للظهور قاصمة ، فلا يجعلها لعُرا الشكر فاصمة ، وأن يجعلها بعد حَمْل هذا الهم

---

(١) صبح الأعشى ٧/٣٥٧ . ونهاية الأرب ٨/١٠٧ .

(٢) من عسى الليل : اشتدت ظلمته .

(٣) درية : نسبة إلى الدر وهو اللبن ، يريد أنه أشبه أباه وأمه فى الأخلاق والصفات .

وفصاله على عليّه فاطمة ، وأن يُحَبَّبَ إلينا كل ما يُلهى عن الأموال والأولاد من غزو وجهاد ، وأن لا تقصف أرواحنا إلا فى فَوْد أو فى فؤاد ، ولا تُجَزّ غيرُ شعور ملوك التتار تُتَوَّج بها رؤوس الرماح ويُصْعَدُ بها على قمم الصِّعاد[1] ولا شغل الله لُبَّ المولى بفادحة ولا خاطرة بسانحة من الحزن ولا بارحة ، ولا أسمعه بغير المسرات من هواتف الإبهاج صادحة » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت للقارئ طريقة محيي الدين ، وهى طريقة تقوم على التصنع وهو تصنع ينتهى به إلى أن يكثر من الجناس المعكوس ، وهو لا يكتفى بهذا الجناس وما فيه من مشقة ، بل نراه يذهب مذهباً بعيداً فى استخدام التورية ، وقد كان يستهدف لها فى جميع كتاباته إذ كانت أهم لون شُغف به الكتاب فى عصره ، وكانوا يدلُّون بها على مهارة الكاتب وبراعته ، وقد وَرَّى محيي الدين فى هذه القطعة مرتين مرة فى قوله : « ومن قيل لبناء ملك هذا عليّه قد وَهَى قيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف » ، فإن كلمة أشرف هنا لا يريد بها معنى الصفة ، وإنما يريد بها الإشارة إلى ولى العهد الجديد لقلاوون بعد وفاة على الملقب بعلاء الدين ، وهو الملك الأشرف خليل ، ونستمر فنجده يورِّى مرة أخرى فى قوله : « وأن يجعلها بعد حمل هذا الهم وفصاله على عليّه فاطمة » فقد جاء بفاطمة مع على وهو يريد هنا الصفة . وواضح أنه ذكر هنا الفصال حين ذكر الحمل كما ذكر فاطمة حين ذكر عليًّا ، وهو ما يسمى عند أصحاب البديع بمراعاة النظير . وليس هذا كل ما فى القطعة من تصنُّع ، ففيها اقتباس واسع من آى الذكر الحكيم ، وفيها أيضاً تضمين للشعر ، تارة يضمِّن بيتاً ، وتارة يضمن شطراً فى مثل قوله : (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) ، وأيضاً فى القطعة تصنع لذكر المبتدأ والخبر . أرأيت كيف تؤلَّف الرسائل عند أشهر كتاب العصر المملوكى ؟ إنها تؤلف من ألوان البديع واصطلاحات العلوم وتضمين الأبيات والأشعار والاقتباس من آى الذكر

---

(١) الصعاد : جمع صعدة وهى القناة التى تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف .

الحكم ، وقد أصبحت هذه الأشياء تلصق إلصاقاً وتلفق تلفيقاً ، فليس هناك كاتب ممتاز لهذا العصر إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون فى نثره يقتسرها اقتساراً وقد يعتسفها اعتسافاً ، وانظر كيف يجتلب محيي الدين التورية اجتلاباً فى أثناء عهد المنصور قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، إذ يقول [١] : « كم جلا بهِىٍّ جبينه من بَهيم ، وكم غدا الملك بحسن رُوائه ويمن آرائه يَتهيم ، وكم أبْرأ مورده العذب هيمَ عطاشٍ ولا يُنكر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم » .

فقد ورَّى فى أبراهيم ، وأهَّل لتوريته بذكر الخليل وهو لا يريد أبراهيم حقًّا إنما يريد أنه « أبرأهيم » فسهل الهمزة لتتم له التورية . ومن يرجع إلى رسائله المنثورة فى صبح الأعشى يجد كثيراً من تورياته فمن ذلك قوله فى كتاب يصف به فتوح قلاوون فى الشام[٢] :

كم شكت منه حماة تُنْبي بنكرها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته مَعَرَّةٌ وما من معرَّةٍ خاف ، ما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جَوْر جِواره تلك الحصون والصياصى ، وتبكى بمَدْمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيكَ بمَدْمَع العاصى » .

فقد ورّى فى كلمة معرة كما ورى فى كلمة العاصى إذ يريد بها النهر المعروف فى الشام لا الصفة ، ومثل ذلك قوله فى كتاب لأحد ملوك الفرنج : « وكيف فارقنا بلادك وما بقيتْ فيها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية »[٣] ، فقد وَرَّى تورية واضحة فى ماشية وجارية . ومن ذلك أنه استهدف للقب قلاوون وهو المنصور ولقبِ الخليفة العباسى فى عهده وهو الحاكم فقال فى كتاب له : « وكيف لا والمنصور هو الحاكم »[٤] ومن ذلك قوله فى نسخة توقيع برياسة اليهود[٥] :

(١) صبح الأعشى ١٠/١٦٨ .
(٢) نفس المصدر ٧/٣٥٥ .
(٣) صبح الأعشى ٨/٣٠٠ .
(٤) نفس المصدر ١٠/١١٧ .
(٥) نفس المصدر ١١/٣٨٧ .

« وليتق الله فيما يَذرُهُ ويأتيه ، ويُحسن فى اجتلاب القلوب واختلابها تأتّيه، وإياه والتِّيهَ ، حتى لا يقال كأنه بعدُ لم يخرج من التّيه . . . وجماعة القرّائين ، فانصب لأمرهم من لم يتولّه حين يتولّه . . والجزية فهى لدمائكم وأولادكم عطية ، وعلى دفاعها لا دافعها وَصمة . . . ومن قصد منها خلاصه ، فقل له فى الملأ ماذا خَلاصَه » .

وواضح أنه وَرّى فى التيه الثانية فلم يُرد بها الصفة وإنما أشار بها إلى التيه الذى ضَلّ فيه اليهود قديماً مع موسى ، واستمرّ فَورّى فى تولّه الثانية كما ورى فى كلمة خلاصه الثانية وهى مركبة من « خلا » وكلمة « صه » بمعنى أسكت. وهذا كله كان يعتبر منتهى ما وصل إليه الفن فى عصر محيي الدين من مهارة وبراعة ، وهى براعة لفظية على نحو ما نرى فى هذه الأمثلة . وإذا تركتَ هذه التورية لم تجد إلا صوراً متكلفة وجناساً معكوساً ولن تجد وراء ذلك إلا تكلفاً لمراعاة النظير وتضميناً للشعر وآى الذكر الحكيم ، وإن سألت عن جديد فلن تجد إلا التصنع لمصطلحات العلوم وخاصة علم النحو كقوله فى رسالة لوزير بتقليد الوزارة فى أثناء كلامه عما نِيط به : « وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكُتّابها وحُسّابها ، وإليه التولية والصرف ، وإلى تقدّمه البدلُ والنعت والتوكيد والعطف »[1] ويقول فى مطلع إحدى رسائله :

« نحمده على نعمه التى جمعت إلى الزهر الثمر ، ودراكت بالبحر وباركت فى النهر ، وأجملت المبتدأ وأحسنت الخبر »[2] . وهناك رسالة ذكرها له القلقشندى وقد بناها كلها على التصنع لاصطلاحات النحو ، وهو يستهلها على هذا النمط[3] :

« حرس الله نعمة مولاى ! ولا زال كَلِيمُ السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومُنادَى جوده لا يُرَخَّم وأحمد عيشه لا ينصرف . . ولا عَدمت نُحاةُ الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصود وممدود ،

---

(١) صبح الأعشى ١١/٢٧٣ .
(٢) نفس المصدر ١٠/١٧٣ .
(٣) نفس المصدر ١/١٧٦ .

ولا خاطبت الأيام مُلْتَمِسَهُ إلا بلام التوكيد ولا عدوَّه إلا بلام الجحود . هذه المفاوضة إليه —أعزه الله — تُفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلا غدا به منتصباً للمكايد ، ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد ، وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدِّرَ لها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوتَ صحبته تكررت فجاز قَطْعها بسبب ذلك التكرير . . وكان الظن أن الأشغال التى جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمعَ سلامة ، وآية لا تكلف تعليما على وصول ، لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه ، والحرف ليست له علامة ، وحاش لله أنْ يصبح مُعْرَبُ إحسانه مَبْنِيًّا » .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من التصنع لمصطلحات النحو وكأن الكاتب يريد أن يسلك كل ما يعرفه من هذه المصطحات فى كتابه ، ونعجب نحن الآن من هذا التصنع الثقيل ، ولكنه كان بدعة العصور الوسطى ، وإنه ليطوى فى داخله مدى ما أصاب الكتابة من جمود وتبلور فى هذه العصور فإذا الكتّاب لا يعنون بأساليبهم إلا هذه العناية التى تجعلهم يسلكون اصطلاحات العلوم فى كتاباتهم ، فإن تركوا ذلك فإلى الاقتباس من آى الذكر الحكيم وتضمين الأشعار والأمثال ، وهم دائماً يوشُّون كلامهم بفنون البديع وخاصة فن التورية . ومن العبث أن نبحث بعد ذلك عن شىء طريف يمكن أن نضيفه إلى عصر المماليك ، فقد كان كتّابُه مقلدين تقليداً شديداً لفن القاضى الفاضل وما سبق أن رأينا عنده من تصنع وتعقيد ، ولم يستطيعوا أن يستحدثوا من جديد ، سوى أن يغرقوا إلى آذانهم فى هذه الأشكال البديعية والعلمية . ومن الحق أن نلاحظ أن البديع لم يَعُدْ يؤدى عندهم معنى التحسين فى صورة طبيعية فقد خرجوا به عن طاقته التى كنا نألفها وأصبح عندهم تلفيقاً وتلزيقًا ، فالكاتب يتصيد فى رسالته تورية أو جناسًا معكوسًا أو اصطلاحًا علميًّا ليدل على مهارته ، ومما لا ريب فيه أن ذلك كان يفتن الأدباء حينئذ ، وهى فتنة جعلت النثر العربى عملا لفظيًّا يعنى فيه بالزخرف والتنميق ، لا بالمعانى ولا ما يتصل بالمعانى من فكر دقيق . وهذا كل ما عند القوم : تصنع وتلفيق

وتلزيق . وما نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نحس بأن الأساليب فى النثر قد تجمدت وتبلورت ، أو هى تريد أن تتجمد وتتبلور إلا أن تصيبها رجفة شديدة تغيّر أوضاعها ، ولكن مصر لم يتح لها شىء من ذلك ، إنما أتيح لها ظلام مطبق ، فقد فتحها العثمانيون واستقروا فيها بعد أن قوضوا الحكم المملوكى وأدالوا منه ، فاستولى على الكتابة الفنية جمود شديد ؛ وأصبحنا لا نكاد نجد كاتباً مُهمًّا يمكن أن نقرنه حتى إلى كتاب المماليك .

٧

العصر العثمانى والعقم والجمود

كان من سوء حظ مصر أن اشتبك المماليك فى حروب مع الدولة العثمانية وانتهى الأمر بدخول سليم الأول مصر فاتحاً عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . وبذلك أصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ولم يعد لها نفوذ فى سوريا وبلاد العرب ؛ بل أصبحت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية ، واستمر شأنها كذلك حتى غزاها نابليون عام ١٧٩٨ للميلاد . وما من ريب فى أن هذا الطور من حياة مصر يعتبر أسوأ الأطوار التى مرت بها ، فقد عمها ظلام كثيب وانتشر فيها جوخانق ، إذ أصبحت ولاية عثمانية بسيطة ؛ بعد أن كانت دولة كبيرة . ومن شأن مصر أنها لا تستطيع أن تتنفس وتزدهر فيها الحضارة إلا إذا كانت أمة مستقلة ذات شأن فى التاريخ والسياسة ، أما إذا أصبحت مغلوبة على أمرها فإن أداة العقل والفن فيها تتعطل : وماذا تنتظر من شعب يفقد السيادة على جيرانه بل على نفسه ؟ لا شك أنه يكتئب ، وينكمش منزوياً فى جُدر وطنه باكياً نفسه وتاريخه ولعل ذلك ما جعل المصريين يرثون المماليك رثاء حارًّا [1] بل لقد رثوا وطنهم رثاء مُرًّا [2] ، وحقّ لهم ، فقد بطش بهم

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ٣/١١١ . (٢) نفس المصدر ٣/١٢٨ .

العثمانيون وأخرجوهم من عزّ إلى ذل ، لا من حيث السياسة فقط ، بل أيضاً من حيث العلم والفن ، إذ أخذ سليم الأول معه كثيراً من العلماء والأدباء والمهندسين وأصحاب الحرف وأدوات الترف [1] ، ولماذا يبقى هؤلاء فى مصر ؟ لقد انتهى عصر المماليك ولم تعد هناك حاجة لفن ولا لصناعة ، فليذهب أربابهما إلى القسطنطينية ، وليذهب معهم العلماء ورجال الفكر ، ولتذهب الكتب والمجلدات التى تعتزّ بها مصر أيضاً حتى تفقد مصر كل ما لها من سيادة عقلية وفنية بجانب ما فقدته من سيادتها السياسية .

لم تعد مصر بلداً عظيماً ، كما كان شأنها فى عصر المماليك إذ كانت بها الخلافة ، وكانت لها السيادة على جيرانها ، وكان لها فى داخلها نشاط عقلى وفنى واسع . أما فى هذا العصر فقد أصبحت ولاية عثمانية يقيم فيها والٍ تركى ، وهذا الوالى له ديوان ، ولكن اللغة الرسمية فى هذا الديوان هى التركية التى يتخاطبون بها مع الباب العالى . ومعنى ذلك أن الدواوين التى كانت تُخرج كبار الكتاب فى العصور السابقة قد أغلقت أبوابها ، فلم يعد هناك مجال لأن يظهر مثل ابن الشحباء أو القاضى الفاضل أو محيى الدين بن عبد الظاهر .

واقرأ فى الآثار الكتابية أثناء العصر العثمانى فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تُقْرَنَ إلى أى عصر من العصور السابقة ، وبون بعيد جداً بين كتاب مثل «بدائع الزهور» فى التاريخ وكتاب آخر مماثل له فى عصر المماليك ، فأنت لا تجد عند المقريزى ولا ابن تغرى بردى ركاكة ولا أخطاء نحوية ولا أخرى لغوية كما لا تجد ألفاظاً تركية ، أما عند ابن إياس فإنك تجد ضعف التأليف عامة ، فالأسلوب واهٍ ، والأخطاء النحوية كثيرة والألفاظ التركية منتشرة . وإذا تركت هذا الجانب من الكتابة التاريخية إلى الكتابة الفنية وجدتها تلفيقاً خالصاً من أساليب السابقين ، وهو تلفيق ليس فيه جديد إلا التصنع الشديد لألوان البديع ومصطلحات العلوم . وقد كانت هذه الأشياء توجد فى عصر

---

(١) ابن إياس ٣/١٤٧ .

المماليك فتُقْبل ، لأن الأسلوب كان جزلا رصيناً فيستطيع القيام بها ، أما فى هذا العصر فالأسلوب واه ضعيف لا يكاد يقوم ، ولعل ذلك ما جعل الشهاب الخفاجى يقول فى مقدمة كتابه « ريحانة الألباء» : « إن الأدب فى هذه الأعصار ، قد هبت على رياضه ريح ذات إعصار ، حتى أخلقتْ عُرَى المحامد ، واسترخى فى جَرْيه عنان القصائد ، وتقلصت أذيال الظلال ، وخطب البلاء على منابر الأطلال ، وعفا رَسْمُ الكرام ، فعليه منى السلام » [1] ، وامض فى ريحانة الألباء فستجد صاحبها يتصنع لمصطلحات النحو كما يتصنع لألوان البديع ، وما نزال فى أساليب غثة حتى نُوفى على آخر الكتاب فإذا صاحبه يؤلف مقامات كلها مأخوذة من مقامات الحريرى بألفاظها ومعانيها وأساليبها ، ونحن لا نتلومه كما تلوم هو سرىّ الدين بن الصائغ « لمكاتبات معسولة الألفاظ مدّنسة المعانى جرت بينه وبين ابن نُجَيم وأكثرها من رسالة ابن زيدون منحولة المبانى» [2] فإن هذه كانت طاقة العصر ، إذ لم يعد هناك مجال للتجديد والابتكار ، فالقوم يعيشون على التقليد واجترار أعمال السابقين ، فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئاً قيما يمكن أن نُعنى به ، فقد جمدت الكتابة الفنية بمصر جموداً ، بل قل لقد تحجرت تحجراً ، إذ أجدبت الحياة الفنية ، وأصبحت مواتاً خالصاً أو ما يشبه الموات ولم يعد من الممكن أن تعود لها النضرة أو تدب فيها الحركة ، إلا إذا تضافرت جهود هائلة حتى تخرج من عالمها الكئيب المظلم إلى عالم جديد مشرق ، فيه نور ، وفيه حياة ، وفيه بعث وأمل وابتسام .

---

(١) ريحانة الألباء طبع الآستانة ص ٤ . (٢) ريحانة الألباء ص ٢٨١ .

خاتمة

١

الصورة العامة للبحث

رأينا النثر العربى فى العصر الجاهلى محدود الموضوعات ، فهو لا يتجاوز الخطابة والأمثال وسجع الكهان ، وقد وفر له أصحابه حينئذ ضروباً من الجهد الفنى اصطلحنا على تسميتها باسم الصنعة . ولما خرجنا من الجاهلية إلى الإسلام وجدنا سجع الكهان يختفى أو يكاد ، بينما تتسع الخطابة وتتنوَّع تحت تأثير الحوادث الدينية والسياسية . وقد أخذ يظهر بجانب الخطابة نوع جديد لم يكن العرب يعهدونه فى العصر الجاهلى ، وهو الكتابة الفنية ، وتتبعنا نشأة هذا النوع ووضحنا كيف أن الحياة العربية نفسها وما أحدث الإسلام فيها من انقلاب هى التى هيأت لظهوره وتطوره ، وبيَّنا كيف أن العناصر الأجنبية أخذت تؤثر فيه ، وما زال ينمو ويرقى ، حتى تمت له صورته النهائية فى دواوين هشام ابن عبد الملك ، تلك الصورة التى عبر عنها — فيما بعد — عبد الحميد الكاتب أجمل تعبير .

ولما انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا طائفة من الأدباء تُعْنَى بالكتابة الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالكتب ، وبدأت هذه العناية أولا عن طريق الترجمة على نحو ما كان من ابن المقفع وترجمته لبعض الكتب الفارسية ، ثم أخذ الأدباء بعده يحدثون ما يشبه هذه الكتب ، فظهرت الرسائل الطويلة عند سهل بن هرون والجاحظ . ولاحظنا أن هؤلاء الأدباء أصحاب الكتابات الطويلة كان شأنهم شأن كتَّاب الدواوين فى العصر الأموى ، فهل يخضعون فى نماذجهم لطاقة محدودة من الفن هى طاقة الصنعة والتكلف المحدود .

ونحن لا نترك هذه الطائفة فى العصر العباسى إلى كتَّاب الدواوين حتى

نجدهم يعنون بحرفة الكتابة عناية بالغة ، وهى عناية كانت تقوم على الزخرف والتنميق ، حتى تتحول كتبهم السياسية إلى وشى وحلى خالصين . وما زالت هذه العناية تتكامل حتى كان مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعتمد على السجع من جهة والبديع من جهة أخرى ، وأستاذ هذا المذهب — غير مدافع — هو ابن العميد فهو الذى وسّع — لأول مرة — طاقة الزخرف فى تعبير النثر وتحبيره ، وخلفته جماعة أوفت بهذا المذهب إلى الغاية التى كانت تنتظره فإذا كتابتهم زركشة خالصة وما يطوى فى هذه الزركشة من تطريز بالسجع وترصيع بالبديع .

ونستمر حتى أواخر القرن الرابع فإذا الحضارة العربية تتحول إلى فنون من التعقيد فى جميع جوانبها ، ولم يشذ النثر عن هذه الحال ، فقد رأيناه يتعقد تعقداً أتاح لظهور مذهب جديد فى النثر العربى ، وهو مذهب التصنع ، وهو مذهب كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضروباً مختلفة من التعقيد ، وحقق أبو العلاء لهذا المذهب كل ما يمكن من صور التصعيب ، وتبعه الكتّاب من أمثال الحريرى والحصكفى يحاولون — بكل ما فى وسعهم من جهد — أن يضيفوا عقداً جديدة إلى عقد أبى العلاء كأنما التعقيد غاية فى ذاته ! واستمر هذا المذهب مسيطراً فى المشرق فلم يخرج بعده مذهب جديد ، وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تعطلت الأداة العباسية التى كانت تُخرج المذاهب ، فلم يعد هناك إلا الجمود والتحجر الشديد .

وهذه هى موجات الفن أو الصناعة فى تاريخ نثرنا العربى ، وقد ذهبتُ أتتبع هذه الموجات فى أهم الأقاليم العربية وأقصد الأندلس ومصر فوجدتهما تعيشان على تقليد المشرق دون أن تحاول إحداهما أن تحدث توجيهاً جديداً ، فقد كان التقليد يعم الأقاليم المختلفة ، وهو تقليد قام على محاكاة النماذج المشرقية فى صور من الاضطراب والاختلاط ، إذ نرى الكتّاب يجمعون فى نماذجهم بين صور المذاهب المختلفة ، وقلما وجدنا من يعيش فى مذهب واحد . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبّرا عن شخصيتهما فى أدبهما بل لقد عبّرتا عنها من حين إلى حين ، ولكن فى شكل شاحب ضئيل .

٢

النثر المصرى الحديث

استطاعت مصر فى العصر الحديث أن تنهض نهضة واسعة فى النثر العربى ، وقد بدأت هذه النهضة فى القرن التاسع عشر منذ أرسلت البعوث إلى أوربا ، فإن هذه البعوث لما رجعت أخذت تفكر فى إدخال بعض ما تعرّفت عليه من الآداب الأوربية ، فظهرت فكرة الترجمة ، وبدأت هذه الترجمة مقيدة على نحو ما نعرف عند رفاعة الطهطاوى فى ترجمته « تليماك » ، فإن من يرجع إلى هذه الترجمة يجدها مقيدة بالسجع المتكرر القوافى ، كما يجدها مقيدة بالبديع ، وهو أسلوب لا يختلف كثيراً عما ألفناه فى العصر الأيوبى وما بعده من أساليب . ولكنا لا نتقدم إلى النصف الثانى من القرن الماضى حتى نجد تحولا واسعاً يحدث فى النثر المصرى وصياغته ، إذ ملَّ الكتاب زىّ السجع والبديع ، وهو ملل يرجع فى الواقع — إلى أن الذين تعلموا فى أوربا ثم عادوا وأرادوا أن يعبروا فى لغتهم عما تعلموه وجدوا هذه اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما فى نفوسهم وعقولهم من معان بسبب ما صارت إليه من التحجر فى أساليب السجع والبديع . حينئذ فكرت هذه الجماعة أن تهجر هذا الزىَّ القديم إلى زى أكثر ملاءمة لمعانيها وما تريد التعبير عنه ، وساعدها على ذلك أن مطبعة بولاق أخذت تخرج كتباً لأعلام العباسيين الأوّل من مثل كتاب كليلة ودمنة ، وليس فيها سجع ولا بديع . وبالغ نفرٌ من هذه الجماعة فدعوا إلى نَبْذ اللغة العربية جملة ، وأن يستخدم المصريون مكانها اللغة العامية على نحو ما نعرف عند عثمان جلال . وسرعان ما اصطدمت هذه الجماعة المجددة التى تعلمت فى أوربا بجماعة محافظة لم تذهب إلى أوربا بل اكتفت بما تعلمته فى الأزهر ، وبما عرفته من صياغة السجع والبديع الشائعة ، فنفرت من آراء الجماعة الأولى ودعوتها التى عدّتها خروجاً على التقاليد وانتهاكاً لحرماتها المقدسة .

وفى أثناء ذلك تفد على مصر جموع من الشام ، إما فراراً من الحكم العثمانى وما كان ينطوى فيه من ظلم ، وإما ابتغاء للنجاح الأدبى فى مصر ، وكانت هذه الجموع تتأثر بالآداب الأوربية أوسع مما تتأثر بها مصر ، وذهب فريق منها إلى أمريكا وأنشأوا صحفاً ومجلات هناك ، وهم جماعة أدباء المهاجَر الأمريكى الذين امتازوا بثورة واسعة على اللغة العربية وأصولها .

ونرى من ذلك أن مصر كان بها فى أواخر القرن التاسع عشر أربع طوائف ، وهى طائفة الأزهريين المحافظين ، ثم طائفة المجددين المعتدلين الذين يريدون أن يعبروا بالعربية دون استخدام سجع وبديع ، وطائفة المفرطين فى التجديد الذين يدعون إلى استخدام اللغة العامية ، ثم طائفة الشاميين ، وكانت فى صف الطائفة الثانية ، وما تزال المعارك تشتد بين الطائفة الأولى والطوائف الأخرى حتى تنتصر طائفة المجددين المعتدلين ، فيعدل المصريون فى كتابتهم إلى التعبير بعبارة عربية صحيحة لا تعتمد على زينة من سجع وبديع ، وإنما تعتمد على المعانى ودقتها على نحو ما نرى فى ترجمات فتحى زغلول وكتب قاسم أمين . وهكذا أتيح لمصر أن تخرج من هذه المعارك التى أقامت فيها لأواخر القرن التاسع عشر حول صياغة النثر بظفر محقق ، إذ اعتمدت على اللغة العربية الصحيحة الحرة الخالية من قيود السجع والبديع واتخذتها أداة للسانها فى كتاباتها. أما العامية فسرعان ما خرجت من بيئة الأدب والأدباء إلى بيئة الفكاهة وصحافتها الهزلية ، فظلت تعيش فيها حتى عصرنا الحاضر ، وأما كتابة السجع والبديع فقد انحازت عن الكتابات الأدبية وإن ظلت تظهر — من آن إلى آخر — على نحو ما نعرف فى «حديث عيسى بن هشام» ولكن الناس ينصرفون عنها تدريجاً ليمكن أن يقال : إنه لا يوجد فى عصرنا الحاضر من يتشيع لهذه الصياغة أو يعنى بها عناية لها قيمة فى أعماله وآثاره ، وربما كانت الصحف من أهم الأسباب التى أعدت لموت البديع والسجع ، فإن كتّاب الصحف مضطرون اضطراراً إلى أن يخاطبوا أوسع مجموعة ، وهذا لا يستقيم لهم مع اللغة المقيدة لأن الذى يفهمها قليلون ، من أجل ذلك عمد أدباء الصحف إلى هجر هذه اللغة المنمقة واعتبروها لغة

بالية ، بل قل لغة ميتة ، لا تصلح لحديث ولا لكتابة ، إذا أريد بالكتابة أن يفهمها الناس . ونحن لا نبعد إذا قلنا إن هذه الجماعة من أدبائنا المحدثين هى التى قضت نهائيًّا على السجع وأزيائه من بديع وغير بديع ، فتحت أيديها تَمَّ هذا التحول نهائيًّا ، وأصبح الناس لا يكادون يلتفتون إلى من يفزع إلى أساليب البديع والترصيع ، إذ يعتبرونه منفصلا عنهم وقلما فكروا فيه أو شعروا به .

٣

بين القديم والجديد

من يتابع نهضة النثر المصرى بعد القرن التاسع عشر يلاحظ أنَّ الصراع بين المحافظين والمجددين يستمر ، ولكن دائماً ترجح كفة المجددين ، وأتاحت لهم الثورة المصرية التى قامت عام ١٩١٩ م أن ينتصروا انتصاراً مؤزراً على إخوانهم من المحافظين ، فقد ثار الناس على قديمهم فى السياسة وثار الأدباء على قديمهم فى الأدب ، وأصبحتَ لا تجد صوتًا يرتفع بالنصرة لفكرة السجع فضلاعن فكرة البديع . واعدّت هذه الحال لنهضة واسعة فى النثر المصرى الحديث ، فإن من يرجع إلى مكتبتنا الحاضرة يُشرف على اتساع ما احتوته من ترجمات عن الآداب الأوربية ، وكذلك ما احتوته من أعمال أدبية صنعتها طائفة من كتّابنا وأدبائنا على غرار ما يصنع الأوربيون أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية . ومعنى ذلك أن مصر الآن تعيش فى عصر يعتمد على النقل الواسع من أوربا كما يعتمد على إحداث نماذج أدبية ممتازة فى عالم المقالة والقصة والمسرحية . وقد أخذ الأوربيون أنفسهم يتصلون بما يصدره أدباء مصر من قصص فترجموه إلى لغاتهم المختلفة ، وبذلك كادت الدورة بين مصر وأوربا أن تتم ، فمصر تأخذ الآن وتعطى .

وهذا المركز الممتاز للنثر المصرى الحديث جعل مصر تتزعم البلاد العربية

فى الحركات الأدبية ، فهى الآن تقوم منها مقام الدفة والمجذاف فى السفينة ، فهى التى توجّه ، وهى التى تثير وتدفع ، ولا يقتصر الأمر على النثر الأدبى الخالص من القصص وما يتصل بها ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى البحوث الأدبية وما تخرجه مصر فى النقد الأدبى ، بل حتى ما تخرجه من مجلات وصحف فصُحفها وآثارها تُقرأ فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية . وكان يحسن — بجانب ذلك — أن تهتم مصر بما تنتجه هذه البلدان ، ولكن هذا الاهتمام الآن قاصر ، فأنت لا تكاد تجد شيئاً عندنا لمجموعة أدباء العراق والشام وهم كثيرون ، وبينهم الممتازون الذين يحسن أن تقرأ آثارهم ، ومع ذلك فقلما تجد من يعنى بهم بيننا ، وكأنما شغل المصريين استيرادُ النماذج الأوربية وألهاهم ذلك عن الاهتمام بنماذج إخوانهم فى البلدان العربية .

ومهما يكن فإن مصر تنبعث فيها الآن نهضة أدبية واسعة ، وإنها لأوسع من أن نعرض لها فى هذه الخاتمة القصيرة بشىء من الاستيعاب والتفصيل . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن هذه النهضة يطبعها طابع من السرعة فى الإنتاج الأدبى ، وخاصة عند كتاب الصحف المحترفين ، وقد أثرت — إلى حدما — هذه السرعة على الصياغة الفنية للنثر المصرى ، إذ باعدت بين صناعته وبين ماكنا نألفه قديماً من التحبير والتجويد . وحقًّا إن كتاب مصر وفّقوا فى إبعاد السجع والبديع عن النثر ، ولكن بعضاً منهم تطرفوا فى عدم العناية بأساليبهم وتنقيح عباراتهم ، ولذلك كنت تعثر فى آثار هذه الطائفة على أساليب لم تصقل ولم تجوّد ، وأيضاً قد تعثر على أساليب كثيرة نقلت نقلاً من اللغات الأوربية . ومن المحقق أن هذه السرعة ترجع — فى أغلب جوانبها — إلى العامل التجارى ، فالأديب يخرج الأثر الأدبى ، ثم يرى أنه لو تأنّى ما استطاع أن يظفر بربح آخر إلا بعد مدد طويلة ، فهو يعدل عن التأنى والتمهل ويتعجل فى إصدار آثاره ، غير مهتم بالتجويد الواسع . وقد يكون من دوافع ذلك أن الجمهور القارئ لا يعرف التجويدَ الفنى منه إلا الأقلون عدداً ، فيعتمد بعض الكتاب على ذلك ويخرجون آثارهم من قصص وغير

قصص من غير تحبير أو افتنان فى التحبير . وبون بعيد جداً بين الطبقة التى كان يُخرج لها أدباء العرب فى العصور السابقة أعمالهم وبين الطبقة الحاضرة التى تَخْرج لها الآن تلك النماذج ، فالطبقة الأولى كانت محدودة بالخليفة أو الأمير وحاشيته وما حوله من أدباء ممتازين وعلماء وفلاسفة ، من أجل ذلك كان الكاتب يجوِّد آثاره منتهى ما يمكن من تجويد . أما فى هذا العصر فالطبقة التى يوجِّه لها الكتَّاب أعمالهم طبقة واسعة من الجمهور ، وأكثر هذه الطبقة حظه من الثقافة العامة — فضلا عن الثقافة الأدبية — ضئيل ومحدود، ولذلك كان يَقْبل كل ما يقدَّم له . وترى طائفةٌ من الكتاب فى الجمهور هذه الخاصة فلا تتريَّث ، بل تتعجل ، وتدفعها هذه العجلة إلى إهمال أساليبها إهمالا من شأنه أن يسقط فى أثنائه كثير من العيوب التى ينبغى أن لا تعتور الأثر الأدبى الممتاز . وإنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة للنثر العربى ومذاهبه فى مختلف عصوره وأقاليمه فاتحة لعناية كتابنا بأعمال أسلافهم وتراث آبائهم ، وأن يدفعهم ذلك إلى الصقل والتحبير حتى يحققوا لآثارهم ما يريدون لها من البقاء والخلود .